دراسة

د. ماجدة حمود



عبد الرحمن الكواكبي

فارس النهضة والأدب

عبد الرحمن الكواكبي

فارس النهضـــة والأدب

الدكتورة

ماجدة حمود

فهرس

الإهداء ٤
بسم الله الرحمن الرحيم ـ المقدمة ٥
الحواشي:.. ٢٢
كتاب (أم القرى) محاولة في تقديم الفكر التنويري في قالب قصصي ٢٣
الحواشي:.. ٩٢
كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) فلسفة النهضة في لغة الأدب
.... ٩٥
الحواشي:.. ١٧٧
الكواكبي الصحفي الأديب ١٨١
الحواشي:.. ٢٥٨
الخاتمة:.. ٢٦٠
قائمة المصادر والمراجع:... ٢٦٧

الإهداء

إلى أحفاد الكواكبي

الذين يقرنون القول بالفعل

ويتمثلون كلماته كي لا تصير صرخة في واد

بسم ا الرحمن الرحيم

المقدمة:

شغف الباحثون بريادة عبد الرحمن الكـواكبي الفكريـة، وفي زحمة حماستهم لأفكاره نسيوا حقيقة هامـة، وهـي أن ريادته كانت أدبية إلى جانب ريادته الفكرية، وأن أي تجديـد في الأفكار يحتاج إلى تجديد فـي اللغـة، لـذلك اسـتطاع الكواكبي أن يكون فارس النهضة بكل ما تعنيه مـن معـان (فكرية، أدبية، دينية، اجتماعية، سياسية...الخ)

وبذلك بدت اللغة العربية وقد تجاوزت على يديه مرحلـة الترهل، كما بدا الفكر متجاوزا مرحلة الجمود، وبذلك يقـدم لنا مثلا ناصعا على أن الفكر واللغة جسد واحد لا يمكن لأي إنسان أن يرى الجسد بعيدا عن الروح، إلا إذا تحـول هـذا الجسد إلى جثة هامدة!

ستحاول هذه الدراسة التوقف عند إنجـازات الكـواكبي الأدبية واللغوية التي كانت منسجمة مع إنجازاتـه الفكريـة، وستعتمد من أجل ذلك علـى كتابيـه "أم القـرى" و"طبـائع

الاستبداد" وعلى مقالاته الصحفية التي قام بجمعهـا الباحـث جان دايه.

أعتقد أنه من المفيد أن نبدأ هذه الدراسة بنبذة عن حيـاة الكواكبي، التي هي سيرة معاناة مع الاستبداد، وسيرة مقاومة له، ضحى في سبيل مواجهة المستبد بكل ما لديه، واسـتخدم كل ما يملك من أسلحة، وقد كانت الكلمة الصادقة إحدى أهم الوسائل التي يقاتل بها عدوه ويقوي بها أهله الذين يعـانون مثله وطأة الاستبداد.

لمحة عن حياة الكواكبي:

ولد الكواكبي في حلب (١٨٥٥) لأسـرة عربيـة، تمتـد جذورها إلى الإمام علي بن أبي طالب (كرم ا وجهه) مـن جهة الوالدين(١)

توفيت والدته عفيفة آل النقيب وعمره ست سنوات، فكفلته خالته صفية واصطحبته إلى بيتها في أنطاكية، حيـث بقـي هناك ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى حلب، ليتعلم فيها على يد الشيخ "طاهر الكلزي" وبعد أن تعلم القراءة والكتابة، وأتـم قراءة القرآن وحفظه، عاد إلى خالته، كـي ترعـى تنميـة علومه، فاستعانت بقريبها "نجيب النقيب" (أصبح فيما بعـد

أستاذا للخديوي عباس الذي كان على عرش مصر حين لجأ إليها الكواكبي).

وحين أتم تعليمه هناك، عاد إلى حلب ليتابعـه بالعربيـة والفارسية، بعد أن أتقن التركية في أنطاكية، فدرس الشريعة والأدب وعلوم الطبيعة والرياضة في المدرسـة الكواكبيـة، التي كانت تتبع مناهج الأزهر في الدراسة، وكـان يشـرف عليها ويدرس فيها والده مع نفر من كبار العلماء،لم يكتـفِ الكواكبي بالمعلومات المدرسية، فقد اتسـعت آفاقـه أيضـا بالاطلاع على كنـوز المكتبـة الكواكبيـة التـي تحتـوي مخطوطات قديمة وحديثة، ومطبوعات أول عهد الطباعـة، فاستطاع أن يطلع على علوم السياسة والمجتمـع والتـاريخ والفلسفة...الخ .

لاشك أن هذه الثقافة المنفتحة التي تمتع بهـا الكـواكبي بالإضافة إلى التربية الإسلامية منحته شخصية متميزة.

عمله الصحفي:

بدأ حياته بالكتابة إلى الصحافة، ويـرجح حفيـده (سـعد زغلول الكواكبي) أن جده عمل في صحيفة "الفرات" الرسمية

سنتين لا أكثر، وقد ترك العمل فيها نظرا لمعاناته (الرقابـة، الاضطهاد لكونه لا يمدح السلطة...) .

وقد أحس أن العمل في صحيفة رسمية يعرقل طموحه في تنوير العامة وتزويدها بالأخبار الصـحيحة، لـذلك رأى أن ينشئ صحيفة خاصة لاعتقاده أنه يستطيع الكتابة فيها بحرية أكبر من الصحيفة الرسمية للدولة، فأصدر صحيفة "الشهباء" (عام ١٨٧٧) باسم صديق له (هاشم العطـار) كـي يفـوز بموافقة السلطة العثمانية، لأنه لو طلب الترخيص باسمه لمـا فاز به، وكان عمره آنئذ حوالي اثنين وعشرين عاما!

لم تستمر هذه الصحيفة طويلا، عطلت ثلاث مرات قبـل أن تغلق بشكل نهائي بعد صدور العدد السادس عشر، إذ لـم تستطع السلطة تحمل جرأته في النقد، فالحكومة كمـا يقـول الكواكبي نفسه "**تخاف من القلم خوفها من النار**".

تابع جهاده الصحفي فأصدر (عام ١٨٧٩) باسم صـديق آخر جريدة الـ"اعتدال" سار فيها على نهج "الشهباء" فعطّلتها السلطة، فتابع الكتابة في صحف عربية تصدر فـي بلـدان عربية وغربية ("النحلة" بنسـختيها العربيـة والإنكليزيـة، و"الجنان" و"ثمرات الفنون" و"الجوائب" و"القاهرة" والمؤيد"..)

كان قلمه نصير الحق، يقف إلى جانب المظلـوم بغـض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي، لذلك وجدناه يشرع قلمه في وجه المستبد، فينقد تصرفاته وتهاونه تجـاه مواطنيـه، فكتب مقالا ينتقد فيه عدم قبول بعض المسيحيين في الجـيش العثماني إلا بعد اشتراط تغيير أسمائهم بأسماء إسلامية!!

المهن التي زاولها الكواكبي:

بعد أن تعطّلت صحيفتاه، انكب على دراسة الحقوق حتى برع فيها، وعين عضوا فـي لجنتـي الماليـة والمعـارف العمومية، والأشغال العامة (النافعة) ثم عضوا فخريـا فـي لجنة امتحان المحامين، وفي سـنة ١٨٨٦ صـار مـأمورا للإجراء.

وبعد أن أحس أن السلطة تقـف فـي وجـه طموحاتـه، وتعرقل مشاريعه، بل وصل الأمر بها إلـى عزلـه وقطـع رزقه، لذلك انصرف إلى العمل بعيدا عنها، فاتخـذ مكتبـا للمحاماة في حي (الفرافرة) قريبا من بيته وسراي الحكومـة يستقبل فيه المظلومين من سائر الفئات وسائر أنواع الظلـم، فيسعى إلى تحصيل حقوقهم ورفع ظلاماتهم بكتابة الشكاوي وإرشادهم إلى طرق الاحتجاج القانوني، وقـد كـان يـؤدي

عمله، في معظم الأحيان، دون أي مقابل مادي، حتى اشتهر بلقب (أبي الضعفاء)

ولكن إلى جانب هذا العمل الخاص نجد الكواكبي قد شغل مناصب عامة كثيرة، دون أن تفلح الدولة في جعله تابعا لها، أو تغيير منهجه في نصرة الحق وخدمة المصـالح العامـة، لذلك سيواجه المتاعب في كـل أعمالـه، وسـيحاربه كـل المستفيدين من الفساد والتسيب، فحين عين رئيسا لبلدية حلب (في زمن الوالي الذي كان مقـدرا لمواهبـه عثمـان باشـا ١٨٩٣) قام بمشاريع عمرانية، كما حاول الحفاظ على سوق المدينة الأثري، فأقام أعمدة حديدية تحول دون دخول الجمال إلى السوق التي كانت تصدم المارة وتملؤه أوسـاخا، درس مشروع سد الفرات، وتجفيف مستنقعات الروج، وكلّف بعض المهندسين باستثمار (حمامات الشيخ عيسى) بعـد تجميلهـا وترميمها، وقد كانت المكافأة التـي تلقـاه الكـواكبي علـى إصلاحاته هي العزل، فقد ضج التجار الذين منعت دوابهـم من دخول السوق، ولم يكتفِ الوالي بعزلـه، بل غُرم قيمـة الأعمدة الحديدية، وفروق رواتب موظفي البلدية التي زادها لهم قطعا لدابر الرشوة!!

ثم تسلّم رئاسة المصرف الزراعي، ورئاسة غرفة التجارة في حلب، فأسس شركة للتبغ بالتعاون مع تجار حلب، كـي يخفف الضغط على الفلاحين، بالإضافة إلى قيامه بإصلاحات أخرى تضرر منها أصحاب السلطة، الذين كانوا يشـاركون المهربين في تهريب التبغ، فأحرقوا مواسم الفلاحين من هذا المحصول، فاضطر الكواكبي إلى حلّ الشركة ودفع قيمـة الأسهم المستحقة من جيبه الخاص!!

في عام (١٨٩٤) تسلم وكالة المحكمة الشـرعية بحلـب، فاستطاع أن ينظّم ديوان المحكمة، ويحارب شـهود الـزور الذين يجلسون أمام المحكمة علـى المصـطبة متظـاهرين بالتدين (كانوا يدعون بشهود المصـطبة) فحاربـه هـؤلاء وغيرهم من الفاسدين حتى عزل.

بعد ذلك عين رئيسا للجنة بيع حق الانتفاع من الأراضي الأميرية (التي أصدر السلطان أمرا بتملكها هو وورثته) فبدأ الكواكبي يوزعها على الفقراء ويحجبها عن المتسلطين مـن رجال الدولة، لذلك عملوا على الإسراع بإقالته!

معاناة الكواكبي مع السلطة العثمانية:

عرف الكواكبي بمقالاته، سواء في حلب أم في خارجها، التي تفضح فساد الولاة، لذلك ناصبه هـؤلاء العـداء، ولـم يوفروا أية فرصة لإيذائه، فقد استغلت السلطة محاولة اغتيال (أو بالأحرى تهديد) والي حلب (جميل باشا) من قبل شـاب (أرمني) يتدرب على المحاماة في مكتب الكـواكبي، فألقـت القبض عليه بتهمة التحريض على قتل الوالي، لكنه خرج من هذه التهمة بريئا، رغم ذلك لم يتخلص من مضايقات والـي حلب، فقد اتهمه الوالي (عارف باشا) بالتآمر مـع الأرمـن لإثارة المشاكل في حلب، وقد استغل حادثة تعرض القنصـل الإيطالي للإصابة بحجر قرب بيت الكواكبي، ليثبـت هـذه التهمة، فقبض عليه وصودرت أملاكه، وحكم عليه بالإعـدام في محكمة حلب، وكان رئيسها من أعـوان الـوالي، فقـدم الكواكبي استئنافا لإعادة محاكمته في بيروت، نظرا للخلاف بينه وبين الوالي، حيث بريء وعزل الوالي، بعد أن عـانى الكواكبي من السجن مدة عام تقريبا في حلب وبيروت.

لم تكتفِ السلطة بمصادرة حريته الصحفية بمنعـه مـن إصدار صحيفة، ومصـادرة حريتـه الشخصـية بالسـجن والاستيلاء على أملاكه، بل وصـل الأمـر بالاسـتبداد أن

اغتصب منه نقابة الأشراف، وأعطاها لأبي الهدى الصيادي الذي زور انتسابه لآل البيت، مع أنه من المعروف أن نقابة الأشراف تتوارثها أسرة الكواكبي في حلب والأستانة وبغداد، باعتبارهم من آل البيت من جهتي الأم والأب منذ أيام أحمـد الكواكبي في منتصف القرن الحادي عشر الهجـري، وقـد كانت نقابة الأشراف مغتصبة من ابن عمه الأكبر منه سـنا (حسن الكواكبي) من قبل الصيادي صديق السـلطان عبـد الحميد ونديمه الأثير!

بعد وفاة ابن عمه استحق عبد الرحمن الكـواكبي نقابـة الأشراف، وكان يعد نفسه وأهل حلب أيضا النقيب الحقيقـي وإن لم يصدر أمر سلطاني بذلك، لأن النقابة تكون في الأكبر سنا من أفراد الأسرة المؤهل علميا واجتماعيا.

اعترض على تزوير نسب الصيادي لآل البيت، بل نجده يحرج أبا الهدى الصيادي أمام جمع من الناس أتوا لتهنئتـه بمناسبة خروجه من السجن، حين قال له "**الحمـد علـى السلامة يا بن العـم**" فرد عليه أمام الناس جميعـا "وعليـك السلام لكن **ابن العم هذه من أين أتيت بها؟**" قاطعـا عليـه طريق الاعتراف بنسبه إلى آل البيت، مبطلا ادعـاءه أمـام

الناس جميعا، ومن المعروف أن النسب إلى آل البيت يحتاج إلى تصديق ممن يعدون أنفسهم يمثلونه، وقـد كـان عبـد الرحمن يمثلهم خير تمثيل، لهذا كان إحراجه للصيادي كبيرا، سيرده له أذى مضاعفا.

لم تكن ثورة الكواكبي على الصيادي بسبب اغتصابه نقابة الأشراف فقط، وإنما كانت بسبب أعماله وظلمه للرعايا، فقد استغل تأثيره الكبيـر علـى السـلطان عبـد الحميـد فـي اضطهادهم، ولهذا من الطبيعي أن يكون الصيادي أحد الذين كادوا له وأوصلوه إلى منصة الإعدام، وهذا ما أشـار إليـه الكواكبي في مرافعته ببيروت.

ضيق الاستبداد الخناق على الكواكبي، حتى كان يقترض ليعيش بعد أن صودرت أملاكه، ومنع من مزاولة أي عمل، رغم ذلك لم تستطع السلطة شراءه بالمناصـب، فـرأت أن تتخلص منه، بعد أن أصبح شخصية مؤثرة في حلـب، بـل امتد تأثيره إلى سائر البلاد العربية، بسبب مقالاته التي كـان يرسلها إلى الصحف العربية، لذلك أرسلت له شخصا ملثمـا لاغتياله، وفعلا طعنه أثناء عودته إلى بيته ليلا، بعـد هـذه الحادثة التي نجا منها بأعجوبة، رأى أن المقـام فـي ديـار

الاستبداد باتت مستحيلة، فقرر الهرب إلى مصـر (١٩٠٠) حيث ستصلها يد الاستبداد وتفلح في قتله، بأن تدس له السـم في فنجان قهوة في مقهى يلدز (١٩٠٢) لا فرق أن تكـون هذه اليد هي يد السلطان عبد الحميـد أو يـد أبـي الهـدى الصيادي، ومما يؤكد هذه الجريمة الإسراع بدفنه على نفقـة الخديوي عباس دون أن تفحص أمعاءه، خاصة أنه صـرح لصديقه في القاهرة (عبد القادر الدباغ) قبيل وفاته قائلا: **"لقد سموني يا عبد القادر"**

لعل الأذى الأكبر الذي تعرض لـه الكواكبي مـن قبـل الاستبداد هو سرقة مؤلفاته وأوراقه، إذ يقال أن السلطان عبد الحميد أوعز إلى من يدعي صداقة الكواكبي (عبـد القـادر القباني) صاحب جريدة "ثمرات الفنون" في بيروت بالرحيـل إلى مصر وسرقة مؤلفات الكواكبي المخطوطة، وقـد فعـل ذلك من أجل أن يفوز بمنصب رفيع في الدولة، فتم الاستيلاء عليها وتسليمها إلى القاتل، ليقضي عليها كما قضـى علـى مبدعها، لذلك افتقدنا كثيرا من المخطوطات التي كتبت فـي المرحلة الأخيرة من حياته قبل خروجه من حلـب وبعـده، وكان من الممكن أن تضاف إلى مؤلفيـه المطبـوعين ("أم

القرى" و"طبائع الاستبداد") وقد ذكرها لنا حفيده سعد زغلول الكواكبي في كتابه "عبد الرحمن الكواكبي:السـيرة الذاتيـة" وهي ("العظمة "، "صحائف قريش"، "الأنساب"، "أمـراض المسلمين والأدوية الشافية لها" "أحسن ما كان فـي أسـباب العمران"، "ماذا أصابنا وكيف السـلامة"، "تجـارة الرقيـق وأحكامه في الإسلام") ويلاحظ من دلالة عناوينها أنها كانت استمرارا لما كان قد طرحه من أفكار في كتابيه السـابقين، وإذا كانت هناك بعض الإضافات فلاشك أنها نتيجة رحلاتـه التي قام بها في السنتين الأخيرتين قبل استشـهاده، ونتيجـة نضج معاناته، ورغبته في مناقشة القضايا الإشكالية التي قـد تشوه الدين الإسلامي كقضية الرق.

وهكذا لم يكتف الاستبداد باغتيال الكواكبي وإنما سـارع إلى اغتيال كلمته، التي كانت لظى على الاستبداد، يخافها كما كان يخاف الكواكبي، ويرى فيها تجسيدا لروحـه، لـذلك لا معنى لقتل الجسد وبقاء روحه الثائرة! لكـن هـذه الـروح، بفضل ا تعالى، باقية بيننا رغم كل هذا القهر، وجدناها حية متألقة ثائرة في وجه الاستبداد في كتابيه ("أم القرى" و"طبائع الاستبداد) وفي بعض مقالاته التي استطاع الباحث جان دايه

العثور عليها (جريدة "الشهباء" و"اعتدال" و"العـرب") وهـي مازالت حية بفضل عناية الباحثين في كل مكان في العالم بما بقي من إنتاجه، لأن عظمة أي إنتاج فكري لا تقاس بكميته، وإنما بفعاليته التي تتجاوز الشرط الزماني والمكاني.

وبذلك نجد أن الكلمة الصادقة التي هي نـبض المعانـاة اليومية للكواكبي، بقيت حية لا تموت، رغم ما تعرضت لـه من محاولة اغتيال وقهر على يد الاستبداد، فقد بدت لنا أقوى من المستبد قادرة على مواجهته والقضاء عليه في أي زمان وأي مكان.

رحلات الكواكبي:

ذاق الكواكبي صنوف المعاناة على يد الاستبداد العثمـاني وأعوانه، حتى لم يبق له مصدر رزق، وصار يستدين مـن أجل متطلبات حياته اليومية، لذلك حين عرض عليه السلطان منصب قضاء (راشيا) كي يبعده عن بلده (حلب) ويضـعف تأثيره، تظاهر بقبوله، وسافر إلـى الأسـتانة سـرا، ليقـوم بتحريات سرية عن أعمال السلطان وزبانيته، ويرى أنـواع استبداده في عقر داره، لكن سرعان ما اكتشف أمره، ودعي للإقامة في قصر خاص بالضيافة، وقد التقى أثناء زيارته تلك

بجمال الدين الأفغاني (١٨٩٥) الذي جـاء إلـى الأسـتانة (١٨٩٢) وبقي هناك (حتى وفاته أو بالأحرى قتلـه ١٨٩٧) في منـزل للضيافة تحت الإقامـة الجبريـة، وقـد أحـس الكواكبي بعد لقائه بالمصير المشابه الذي ينتظـره ، لـذلك سارع بالعودة إلى حلب سرا.

لقد كان ظاهرا للعيان رغبة السلطان في التخلص منـه، خاصة بعد أن أدرك أن المناصب في حلب لم ولن تغيـره، فرأى الكواكبي حين عرض عليه السلطان منصب القضـاء في راشيا وسيلة جديدة لإبعاده، خاصة أن هذا المنصب قـد جاء بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها والتضـييق علـى حريته في الأستانة، لذلك قرر الهـرب إلـى مصـر سـرا (١٩٠٠) بعد أن رهن البيت الذي كان مسجلا باسم زوجته، ليؤمن تكاليف سفره.

ولو تأملنا أسباب اختيار الكواكبي مصـر موطنـا لـه، للاحظنا أنها تنحصر في الحرية: جوهر الوجود الذي عـاش من أجله الكواكبي ومات في سبيل تحقيقه، وهذا مـا تخيـل وجوده في مصر زمن الخديوي عباس، فقـد كانـت مـلاذا للكتاب، الذين هاجر إليها أغلبهم من بلاد الشام، رغبة فـي

الحرية، (التي يلمسها المرء خاصة في الجرائـد المصـرية التي كانت تتمتع بحرية نقد السلطان عبد الحميد) وإلى جانب الحرية في التعبير، كانت هناك حرية فـي اسـتخدام اللغـة العربية في الكتابة التي كانت شـبه ممنوعـة فـي شـرقي السلطنة، لذلك أسس المهاجرون إليهـا صـحفا ومجـلات، واستطاعوا أن يسهموا في إغناء الحياة الأدبية والفكرية فـي مصر، وقد شكّلوا صوتا واضحا في الصحافة عرف فيهـا، واشتهر باسم "الشوام"

عاش الكواكبي في القاهرة حوالي سنتين حيث ذاع صيته، وتابع نشر مقالاته في الصحف المصرية، بل نجده قد أصدر فيها "صحيفة العرب" التي لم تلبث أن توقفت، دون أن نعرف السبب، ربما قد يكون بسـبب تقـارب الخـديوي عبـاس والسلطان عبد الحميد!! وقد كان أحـد أهـم شـروط هـذا التقارب، ألا يساند الخديوي المناوئين للسلطة العثمانية!!

كذلك استطاع أن ينشر فيها كتابيه "أم القـرى" و"طبـائع الاستبداد" اللذين كتبهما في حلب ولم يستطع نشرهما إلا بعد هربه منها، ويقول نديم الكواكبي (عبد المسيح الأنطاكي) إن الكواكبي ظل مختفيا في القاهرة حتى طبع كتاب "أم القـرى"

إذ أرسل منه نسختين إلى الخديوي في الإسكندرية، ونسـخة إلى"الشيخ محمد عبده" والثالثة إلى"الشيخ علي يوسف" وقـد سر الخديوي بالكتاب فطلب إلى الشيخين أن يسعيا للتعـرف على صاحب الكتاب الذي لم يذكر اسمه عليه، ومنـذ ذلـك الوقت نشأت صداقة بين الخديوي والكواكبي التي يبدو أنهـا لم تعمر طويلا، بسبب التقارب بين الخديوي والسلطان عبـد الحميد، ورفض الكواكبي طلب الخديوي للسفر معـه إلـى الأستانة للتصالح مع السلطان.

أثناء إقامته في القاهرة، قام بـرحلتين زار فيهمـا بـلادا عربية وأخرى إسلامية، ليتفهم أحوال المسلمين وليدرس عن كثب مشروع رابطة أم القرى الذي تحدث عنه بشكل نظري في كتابه "أم القرى" فزار السودان والجزيرة العربية واليمن، والتقى القبائل العربية، ليعرف مدى مقدرتها علـى القتـال، وليحرضها على الثورة ضد الأتراك، لكن اللافـت للنظـر اهتمامه بالشؤون الاقتصادية والجيولوجية لبلاد العرب، حيث ذكر ابنه (كاظم) الذي رافقه في رحلته الثانية، أنه كان يجمع نماذج من صخورها، ويجلبها معه إلى مصر لدراستها مـن قبل المتخصصين لمعرفة الثروات المعدنية التـي تحتويهـا

الجزيرة (وقد كان من بينها على ما يذكر ابنه زيـت الـنفط الذي دلّه عليه الأعراب في الجزيرة) .

إذاً لا تبدو الغاية من رحلاته دراسة أحوال الأمة العربية والإسلامية من الناحية السياسية والعسكرية فقط، بل دراسـة أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية، كـي يؤسـس لدولـة عصرية، ترتكز على إمكاناتها الاقتصادية الذاتية، لذلك سعى إلى معرفة ما تملكه من ثروات باطنية بالإضافة إلى ما تملكه من استعداد حربي، فهو يدرك أن حريـة الـدول لا تكـون بجلاء الغريب عنها، وإنما بامتلاك القدرة الاقتصادية التـي تستطيع حماية الحرية، وتأسيس بنيان الدولـة علـى أسـس متينة، تمنحها استقلالا حقيقيا.

لقد امتلك الكواكبي وعيا سابقا لعصره، فسعى إلى الحرية بأفضل معانيها، جنّد في سبيلها كل ما يملكه من مواهب أدبية وفكرية، وضحى من أجلها بكل ما يملك، حتى دفـع حياتـه ثمنا لها.

***

الحواشي:

١. جميع المعلومات التي في وردت في هـذه المقدمـة، أخذت من كتاب حفيد الكواكبي القاضي سعد زغلـول الكواكبي، وهو بعنوان "عبد الرحمن الكواكبي: سـيرة ذاتية" دار بيسـان، بيـروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٥_ ١٢٠ بتصرف.

محاولة في تقديم

الفكر التنويري في قالب قصصي

أعتقد أن الكواكبي جسد لنا ظاهرة تستحق التأمـل فـي الفكر العربي الحديث، إنها ظاهرة انسجام القـول النظـري بالمواجهة العملية، فقد بدت لنا حياته مرآة لأفكاره، إذ جسـد صورة المثقف النموذجي، الذي يقرن القول بالفعل، فيبدو لنا خطابه النظري في مقاومة الاستبداد وإصلاح الأمـة نتيجـة جهاد حقيقي في مواجهة الظلم، بالنفس والقلم والمال، لـذلك نجده واجه سلطة الاستبداد العثماني فعلا وقولا، وبدأ يحاول النهوض بأمته عبر بث الوعي لدى أبناء أمته في الصحافة، وعبر الممارسة العملية، حين استلم رئاسة البلدية في حلـب (١٨٩٣) لذلك لم يبق فيها سوى شهر واحد، فقد عزل نتيجة الإصلاحات التي أدخلها، كما رأيناه يحول مكتبه إلى مركـز لرفع الشكاوي ضد الولاة الفاسدين، وكتابة مظالم الفقـراء وإرسالها إلى السلطان، حتى إنه لقب بأبي الضعفاء.

حاول بذل جهده في نصرة الحق و إقامة العـدل الـذي ضاعت أسسه، بعد أن ساد الفساد بين الولاة، لذلك جنّد نفسه لمواجهة المستبدين والحكام بكل ما يملك من وسائل فكريـة وعملية.

كان صلبا في مقارعة المستبد، ممن يؤمنون بأن "**أعظـم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**" ولاشك أن تربيته علـى أخلاق الدين الإسلامي ومبادئه السـمحة، بالإضـافة إلـى تعرضه لظلم السلطة (صودرت أملاكه، سلبت منـه نقابـة الأشراف، وأعطيت إلى إنسان لا يستحقها، يدعى أبو الهدى الصيادي، سجن وحكم عليه بالإعدام ظلما، أغلقت صحيفته، اضطراره للهجرة إلى مصر) أدى كل ذلك إلى شحذ عزيمته لمقاومة الاستبداد، فبدا لنا مرهف الإحساس لمعاناة غيره من المظلومين، يمتلك حسا بالمسؤولية حيال الضعفاء من قومه، الذين لا يملكون أدوات مواجهة الاستبداد.

لذلك حاول أن يفضح أساليب الظالمين من الحكام بكل ما يملكه من وسائل، كما حاول أن يساند المظلومين بكـل مـا يملكه من إمكانات لعل أهمها القلم.

كتاب "أم القرى" (١٨٩٨)

أتاحت لـه مقارعة سلطة الاستبداد والعمل في الصحافة فهم الواقع المتردي، مما جعله يـدرك أن التخلـف مـرض يصيب جسد الأمة بأكمله، لهذا نجده في هذا الكتاب يحـاول الوقوف عند الخلل الذي أصـاب المسـلمين وقفـة متأملـة موضوعية، تتجاوز المألوف في ذلك العصـر، إنهـا وقفـة تتجاوز النظرة القدرية المستسلمة، إذ حاول أن يجمع، عبـر الخيال، علماء المسلمين، ليسمع آراءهم، لذلك كان كتابه "أم القرى"(١) تجسيدا لرغبة كامنة في أعماقـه، هـي وحـدة المسلمين وقوتهم، فكان منهج عمـل لدراسـة حـال الأمـة الإسلامية، ومناقشة أسباب هذا التخلف بطريقة علمية، تنقب عن أفضل الوسائل التي تنهض بالأمة، لهذا نجـده يحـدد، بلسان علماء الأمـة، موضـع الـداء أولا ثـم أعراضـه وجراثيمه، ليقترح هؤلاء العلماء بعد ذلك الـدواء، مبينـين كيفية استخدامه، معلنين ضرورة اتحاد المسلمين في جمعيـة تأسيسية، تستطيع تنظيم العـلاج، تـدعى "جمعيـة تعلـيم الموحدين" وبذلك يتوارى الكواكبي وراء آراء جماعة علماء المسلمين وفقهائهم، لينأى عن الرأي الفردي الذي لن يكـون منقذا لعامة المسلمين باختلاف أقطارهم ومـذاهبهم، وبـذلك

استطاع أن يقدم لنا أول مؤتمر إسلامي متخيل، يجسد رغبة حقيقية في وحدة المسلمين.

وعلى هذا الأساس اختار لكتابه شكلا جديدا أقرب إلى فن الرواية، إذ تخيل فيه جمعية تضم أعـلام المسـلمين تعقـد اجتماعا في "مكة المكرمة" قبل موسم الحج، وقد سمعنا فـي المقدمة صوت الرحالة الراوي، الذي هو صوت الكـواكبي، يقول: "**فعقدت العزيمة، متوكلا على ا تعالى، على إجراء سياحة مباركة بزيارة البلاد العربيـة، لاسـتطلاع الأفكـار وتهيئة الاجتماع في موسم أداء فريضة الحج**".

نلاحظ أن الكواكبي حين تخيل عقد الاجتماع، لم يكتـف بعلماء عرب، بل أضاف إليهم علماء مسلمين من كافة البلاد الإسلامية، بل من بلاد غير إسلامية، فالمهم لديه انتماء العالم إلى الفكر الإسلامي بغـض النظـر عـن بلـده (السـعيد الإنكليزي).

وبما أن الراوي هو الصوت الرئيسي، الذي يجسده صوت الكواكبي نفسه، لهذا شغل حيزا كبيرا في الكتـاب، دون أن يحاول إلغاء الأصوات الأخرى، فهو يناقش أحوال المسلمين مع شخصيات أخرى تنتمي إلى الأمة الإسـلامية (الفاضـل

الشامي، البليغ القدسي، العلامة المصري، المحقق المـدني، المولى الرومي، الشيخ السندي، الفقيه الأفغـاني، الخطيـب القازاني،السعيد الإنكليزي..).

تعمد الكواكبي، في هذا الكتاب، أن يبرز وحـدة الأمـة الإسلامية رغم تنوع بلدانها، وقد ساعد هـذا التنـوع علـى إبراز تعدد الأمراض التي يشكو منها جسد الأمة، واسـتطاع بالتالي أن يبرز تعدد الآراء والحلول من أجل معالجة هـذه الأمراض.

وقد بدت لنا استفادته من إنجازات الفن الروائي حين أسبغ على العلماء أسماء وهمية، مستغلا دلالات الاسـم المكانيـة ليفصح عن انتماء الشخصية إلى بلد إسلامي بعينه، فتتحـدث حديث العارف، دون وجل، عن أوضـاع بـلاد المسـلمين ومعاناتهم، ولا يمكن أن ننسى ظروف القهر والاستبداد التي أدت به إلى الاستعانة بهذه الأسماء الوهمية.

صحيح أن فن الرواية، زمن الكواكبي، لم يكن قد أثبـت حضورا كبيرا على صعيد التأليف، لكن المحاولات الأولـى كانت قد بدأت على يد سليم البستاني الـذي أصـدر روايـة "الهيام في جنان الشام" (١٨٧٠) بعد أن نشرها مجـزأة فـي

صفحات (الجنان) ويمكن القول أن حركة الترجمة في مصر ولبنان كانت أكثر نشاطا من التأليف، ولاشك أن الكـواكبي الذي عرفنا نهمه للمطالعة قد اطلع على هذا الفـن الوافـد، سواء أكان مترجما أم مؤلفا، واستفاد منه في كتابه "أم القرى" .

ومما تجدر الإشارة إليه أن طريقة التخييل الروائـي قـد ساعدته على تقديم شخصيات متنوعة، حتى إننا نجـد بينهـا شخصيات غريبة عن الإسلام (نجد مستشرقا أسـلم حـديثا، يناقش مفتي قازان، فيقدم لنا حوارا متخيلا على لسان إحدى الشخصيات المشاركة فـي المـؤتمر (الخطيـب القـازاني) وبفضل هذه الشخصية المتخيلة اسـتطاع أن يقـدم أحكامـا جريئة كرفض أقوال الفقهـاء مادامـت متناقضـة، إذ "**مـا الموجب لتكليف النفس ما لم يكلفها بـه ا ؟ ألـيس مـن الحكمة أن يحفظ الإنسان حريته واختياره، فيستهدي بنفسه لنفسه، فإن أصاب كان مأجورا، وإن أخطأ كـان معـذورا، ويكون ذلك أولى من أن يأسر نفسه للخطأ المحتمـل مـن غيره"(٢).**

وبذلك أتاح لـه الشكل الفني المبتكر أن يقـدم أفكـارا لا يمكن أن ينسبها صراحة إلى نفسه، فهو ينتقد ظاهرة تقـديس أقوال الفقهاء، أي ظاهرة النقل لدى المسلمين وإغفال العقل، فيجدهم أسرى للفروع، غافلين بذلك عن الأصـول، لـذلك سنجد سعيد الإنكليزي (وهو أحد ممثلي مسلمي بريطانيـا) يعلن صراحة بأننا "**تركنا دين آبائنا وقومنا لنتبع دين محمد نبي الإسلام عليه الصلاة والسـلام، لا لنتبـع الحنفـي أو الشافعي أو الحنبلي أو المالكي، وإن كانوا ثقاة ناقلين**".

وبما أن أفكارا جريئة سيتم طرحها في هذه الجمعية، لهذا هيأ لها مناخا مناسبا، يضفي أهمية عليها، فالشخصيات التي تطرح أفكارا جريئة، وتنتقد الأفكار التقليدية ليست شخصيات عادية، بل هي شخصيات منتقاة من علماء الـدين (حملـت لقب: العلامة، الفقيه، الشيخ...) وقد جعلها تجتمع في مكـان مقدس (أم القرى) وفي زمن مقدس قبيل أداء فريضة الحـج (في شهر ذي القعـدة) وبـذلك يحمـي أعضـاء الجمعيـة المصلحين من تهمة الكفر التي يوجهها لهم الجاهلون حـين يسمعون أفكارا تناقض ما ألفوه، فجعـل شخصـيات هـذه الجمعية من العلماء، تجتمع في مناسبة إسلامية (أثنـاء أداء

فريضة الحج) وبهذا يذكر الكواكبي بالوظيفة الدنيوية للحـج (إصلاح حال المسلمين، وتوحيدهم لحل مشـاكلهم) ويؤكـد على وقوفها إلى جانب الفريضة الدينية.

تبدو لنا هذه الجمعية أحد أحلام الكواكبي التي سعى فـي حياته لتحقيقها، فسافر من أجل إنشاء مشروعها علـى أرض الواقع إلى البلاد العربية والإسلامية، محاولا أن يستفيد مـن اللاوعي المقدس الذي يؤسس وجدان المسلمين، فبـدت لنـا ملامح الخطاب المقدس في أصدق تجلياته (القـول الـديني: القرآن الكريم والحديث الشريف، الشخصـية: رجـال ديـن علماء، الزمن: قبيل وأثناء فريضة الحج، المكـان: المدينـة المقدسة "مكة المكرمة" الذي اختار لها اسما يوحد كافة المدن الإسلامية: "أم القرى"...) .

كما استخدم أساليب توحي لنا بسرية الخطاب، فسعى إلى إطلاق أسماء رمزية على أعضاء الجمعية، بل وجدناه يمنح كل عضو من أعضاء جمعيته رقما سريا، يعرف به، وذلـك زيادة في الحيطة، وكذلك وجدناه حين يبدأ السرد التفصـيلي يجتنب التفاصيل الدقيقة، فالمكان عام (أم القرى) الذي يعقـد فيه الاجتماعات لا نعرف تفاصيله، تحيطه السـرية، يقـول

السيد الفراتي "**اتخذت لي دارا في حي متطرف فـي مكـة، مناسبة لعقد الاجتماعات بصورة خفية، ومع ذلك استأجرتها باسم بواب داغستاني روسي، لتكون مصونة من التعـرض رعاية للاحتياط**" أي رعاية لحرية التعبير وحماية الأعضـاء من عيون السلطة المبثوثة في كل مكان، لـذلك لـم يكتـفِ باختيار مكان سري بعيد عن مركز المدينـة! بـل يسـتأجر البيت باسم بواب لا علاقة له بالجمعية، نحس هنـا بمعانـاة الكواكبي من عيون السلطة التي لاحقته في حلب والقـاهرة، لذلك بدت لنا جملة الاحتياطات التي حـدثنا عنهـا الـراوي لانعقاد هذه الجمعية هي الاحتياطات التـي كـان الكـواكبي يتخذها في حِلّه وترحاله، وبذلك نستطيع أن نعـايش القهـر والملاحقة التي تعرض لها، أيام السلطان عبد الحميد الثاني، الكواكبي وأمثاله من أصحاب الرأي الـذين يحـاولون أن يكونوا فاعلين، ستصل هذه المعاناة حد الاغتيال بدس السـم في فنجان القهوة، كما حصل للكواكبي!

كذلك يبدو لنا أن الهدف من انعقاد اجتماع الأعضاء فـي مكان الحج وزمنه، ليس الهالة القدسية فقط، وإنما لفت أنظار المسلمين إلى أن هذه الفريضة ليست فردية، وإنما فرضـها

الله تعالى لصالح الجماعة الإسلامية، كي يتم مناقشة أوضاعها المتردية وطرق النهوض بها، وهذا ما حاول الكواكبي تجسيده في كتابه "أم القرى" إذ ناقش أعضاء جمعية الموحدين أوضاع المسلمين، شرحوا ضعفهم، وبينوا أسباب تخلفهم على جميع الأصعدة: الدينية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية، أي جميع العوامل التي أسهمت في تخلف المسلمين، وبذلك يرد على أولئك الذين يرون في هذه الفريضة شأنا خاصا بالفرد المسلم، إذ لا جدال في الحج، ليبين أن هذه الفريضة جماعية أوجدها الله تعالى لإصلاح حال المسلمين ومجتمعاتهم، كما هي فريضة فردية لإصلاح حال الإنسان المسلم، وذلك عن طريق تبادل الحوار الهادئ والمنطقي الذي يقوي المسلمين ويزيل أسباب الخلاف بينهم فيوحدهم على صعيد الفكر كما توحدهم هذه الفريضة على صعيد الروح، أما الصراع والجدال الذي يرمي إلى الفرقة والإضرار بوحدة المسلمين فهذا ما يرفض الكواكبي ممارسته في الحج، لذلك وجدناه يعرض لنا جملة الأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين عن طريق الحوار بين علمائهم المخلصين الذين يؤدون فريضة الحج، فيجعلونها متلازمة مع

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالاقتراب من
ا في هذه الفريضة يعني الاقتراب من مصالح الجماعة
الإسلامية من مناقشة أوضاعها وأسباب تخلفها من أجل
النهوض بها، لذلك رأيناه يتوقف عند الأسباب التالية:

١_الأسباب الدينية:

يحاول الكواكبي أن يعود بالإسلام إلى صفائه وقوته، فيربطه بالحياة العامة، ويرى أن من أسباب ضعف المسلمين إهمالهم "**تشريع الجماعة والجمعة وجمعية الحج! وترك خطباؤهم ووعاظهم، خوفا من السياسة، التعرض للشؤون العامة"(٣).**

إذاً يلاحظ الكواكبي العبث بأركان الإسلام الأساسية ذات السمات العامة التي يجتمع فيها المسلمون (صلاة الجمعة، فريضة الحج، التكافل الاجتماعي..) فيتم تحويلها إلى فريضة خاصة، لا علاقة لها بهموم الجماعة، وذلك خوفا من الحكام المستبدين، فمثلا تم العبث بفريضة أساسية (الحج) وتحويلها من فريضة جماعية تنمي الحس الإسلامي بالوحدة، والحس الإنساني بالمصير المشترك إلى فريضة خاصة بالفرد المنعزل عن إخوانه من المسلمين، فيبدو كأنه الإنسان الوحيد

في هذا الكون! وبذلك ينسى أولئك العابثون، الذين يشـوهون الدين، حقيقة إنسانية يوضحها لهم الكواكبي: الإنسان **مـدني بالطبع، لا يعيش إلا بالاشتراك، لكنه ينسى أوامـر الكتـاب والسنة له بضرورة الحفاظ على الرابطة الدينية التي تعنـي لديه: الولاء لعامة المسلمين، وبذلك ينسى الأصول ويتعلق بالفروع.**

تم تشويه الدين الإسلامي أيضا، في رأي الكوكبي، علـى يد بعض الفقهاء، حين **أدخلوا عليه عقيدة الجبرية والزهـد في الدنيا وإماتة المطالب النفسية** (حب المجـد والرياسـة والمفاخر...) وقد شبه الكواكبي هذا التشـويه الـذي يشـيع الجبرية في حياة المسلمين بالمخدرات أو المثبطـات التـي تميت كينونة الإنسان وروحه ليبقى جسده فقـط علـى قيـد الحياة! ومثل هذا الميتة أقسى من ميتة الروح والجسد معا.

ومما شوه الإسلام أيضا، في رأيه، هو **التشدد في الـدين والتعصب،** فنجده يدعو هذا التشدد بـ"**العاهة**" التي تشوه وجه الإسلام السليم، وتعرقل فاعليته في الحياة العامة، وقـد أدى تعصب الآخرين (النصارى أثناء الحروب الصـليبية) إلـى

إدخال التعصب على الإسلام، مع أن طبعه يأباه وينكره شرعه، على حد قوله.

إذاً بسبب انتشار هذه المفاهيم (الفردية في ممارسة العقائد، الجبرية، الزهد، الموات، التعصب...) لم يعد الدين عامل قوة في حياتنا، وهو يذكرنا بحقيقة نكاد ننساها فيقول: **"إن كل دين كان في أوليته باثّا النظام والنشاط وراقيا (بمعتنقيه) إلى أوج السعادة في الحياة، إلى أن يطرأ عليه التأويل والتحريف والتفنن والزيادات...فيأخذ في انحطاط الأمة..."**.

لاشك أن مسؤولية هذا الانحطاط تقع على رجال الدين الذين يدعوهم الكواكبي بـ**"المتعممين الجهال"** وقد صاروا أضر على الدين من الشياطين، إذ اقتصر همهم في النوافل والقربات ورواية الحكايات والإسرائيليات ونوادر الزهاد وكراماتهم! وقد شاع فيهم الجهل إلى درجة أنهم لا يستطيعون قراءة نعوتهم المزورة!! وخير من يمثل هؤلاء (أبو الهدى الصيادي) الذي كان مقربا من السلطان عبد الحميد بسبب شعوذته، لذلك منحه نقابة الأشراف واغتصبها من الكواكبي وأسرته!

وهكذا يبدو لنا الصيادي وأمثاله يبيعون ديـنهم بـدنياهم، فيسبغون على السلطان الألقاب التي تقـربهم مـن الشـرك (المولى المقدس، صاحب الجلالة والعظمة...) ويشـجعونه على الاستقلال في الرأي ومعاداة الشورى، ونجـد هـؤلاء المنافقين لا يعرفون من القرآن سوى آيتين يفسرونهما وفـق أهواء المتسلطين من الأمراء، إحداهما قوله تعالى "أطيعـوا ا وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم" متغافلين عن صيغة الجمع في "**أولي الأمر**" وما يقتضيه قيـد "**مـنكم**" والثانيـة "وجاهدوا في سبيل ا " متغافلين أن الجهاد في سبيل إعـزاز كلمة ا لا تأييد الأمراء وحمايتهم، ولذلك لـم يعـد الـدين يستوطن القلوب، وإنما رؤوس الألسن، لاسيما عنـد بعـض الأمراء والأعاجم الذين يتظاهرون بالتدين لتمكين سـلطتهم على بسطاء الأمة، كما أن ظواهر عقائـدهم تحكـم علـيهم بالشرك وهم لا يشعرون(٤).

لذلك وجدنا الكواكبي يحمل الفقهاء مسؤولية الإساءة إلـى سماحة الدين، حين رفضوا الحرية الدينية وتعدد التـأويلات، وشددوا على صحة آرائهـم مخطئـين الآراء المخالفـة، فأثاروا فتنة الجدل في العقائد الدينية والتعصب للمذاهب، مما

شوش أفكار الأمة، إذ كثرت فيها الآراء المختلفة في فروع الدين، وبناء على ذلك نجد الكواكبي يؤكد أن الاختلافات الموجودة في الشريعة ليست كما يظن شاملة للأصول، بل هي في فروع تلك الأصول، وفي بعض الأحكام التي ليس لها في القرآن الكريم والسنة نصوص صريحة، وهذه الأحكام الخلافية كلها ترجع إلى دلائل إما قطعية الثبوت ظنية الدلالة، أو ظنية الثبوت والدلالة، ويرى أن منشأ اختلاف المجتهدين يعود إلى الخلافات النحوية والبيانية، ثم وجدناه يورد أقوالا للأئمة (ابن حنبل، مالك، أبي حنيفة، الشافعي..) التي تبين أن اجتهادهم فيما لم يرد في القرآن والسنة قابل للأخذ والرد، فهو يلفت النظر إلى أن هؤلاء الأئمة اجتهدوا وفق ظروف زمانهم ومتطلباته، لذلك قد يكون هذا الاجتهاد غير صالح لزمن آخر، وبالتالي يتوجب على العلماء في العصر الحديث الاجتهاد وعدم الركون إلى أقوال الفقهاء السابقين، وبذلك يدعو العلماء إلى إعمال العقل في كل ما لم يجدوه في الأصول (القرآن والسنة) وإن وجدوه في الفروع، كما يدعوهم إلى سعة الأفق وقبول الرأي المخالف لآرائهم خاصة حين يصدر عن عالم مثلهم.

إذاً يحاول الكواكبي أن يضع يده على عوامـل ضـعفنا وتمزقنا، فيقدم لنا العلاج، مبينا أن علينـا تـرك الخلافـات المذهبية التي نتبعها تقليـدا، وأن نعتمـد صـريح الكتـاب وصحيح السنة وثابت الإجماع، لكيلا تفرقنا الآراء، أما ما لم يرد فيه نص أو إجماع، فنأخذ ما يناسبنا من أي مذهب كان دون أن نقيد أنفسنا بمذهب معين، فهو يريـد التوفيـق بـين المذاهب حلا للخلاف بينها وتوحيدا للمسلمين، وقد لمسنا هذه الدعوة لدى جمال الدين الأفغاني وغيره من رجال النهضـة حرصا على توحيد كلمة المسلمين.

٢_الأسباب السياسية:

لاحظنا كيف تميز الكواكبي بالجرأة في نقده لرجال الدين، فبين أنهم سبب تشوه الدين وتفريق المسلمين، وقد وجدنا هذه الجرأة ذاتها في نقده للسلطة السياسـية منـذ وقـت مبكـر (١٨٧٧) في الصحافة (في جريدة الشهباء) فقد بين أن سبب الفساد الذي يسيطر على الفكر العام أربعة قرون هـو تلـك "**السياسة المطلقة العنان**" التي اتبعها الحكام**،** لهذا سـارعت السلطة العثمانية بإغلاق هذه الجريدة، فعمد بعد أن أغلقـت السلطة جريدة أخرى له (جريدة الاعتدال) إلى تأليف كتـاب

"أم القرى" كي يجد متنفسا للتعبير الحر عن أفكاره، فيستمر في نقده الإصلاحي، بعد أن زادت أفكاره السالفة وضوحا ونضجا، وهذا أمر طبيعي فقد مضى عشرون سنة تقريبا على إغلاق جريدتيه حين بدأ الكتابة في (أم القرى).

يرى الكواكبي أن المنشأ الأصلي لكل شقاء هو انحلال السلطة القانونية بسبب فسادها أو غلبة سلطة شخصية عليها، وهكذا انحرفت السياسة الإسلامية من الديمقراطية، في عهد الراشدين، إلى الملكية المقيدة بقواعد الشرع الأساسية، ثم أصبحت شبه مطلقة، ومثل هذا الانحراف أدى إلى ضعف المسلمين.

وحين أراد أن يبين أثر افتقاد القانون وضياع حقوق الإنسان، جعل أحد مضطهدي الحكومة العثمانية (المولى الرومي) يوضح لنا "**أن البلية فقدان الحرية، وما أدراك ما الحرية؟ هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه...**" لذلك وجدناه يعرف الحرية "**بأن يكون الإنسان مختارا في قوله وفي فعله لا يعترضه مانع ظالم...**"**(٥).**

يلفت نظرنا الدلالة السلبية التي يحملها اسم (المولى) الذي اختاره الكواكبي لأحد المضطهدين من قبل الدولة! لذلك يقدم

فهما متميزا للحرية (هي القدرة علـى الاختيـار وممارسـة الإرادة) كما يجعل من فروع الحرية المساواة في الحقـوق ومحاسبة الحكام الذين هم وكلاء ا على الأرض، لذلك من واجب المسلم بذل النصيحة لهـم، والجـرأة فـي المطالبـة بالحقوق.

ويرى الكواكبي أن من فروع الحرية أيضا حرية التعليم، حرية الخطابة والمطبوعات، حرية البحث العلمـي...لـذلك نجده معنيا بإبراز مكانة الحرية: **فهي "أعـز شـيء لـدى الإنسان بعد حياته، وحين نفقـدها تفقـد الآمـال، وتبطـل الأعمال، وتموت النفـوس، وتتعطّـل الشـرائع، وتختـلّ القوانين"** وبذلك تصبح قوام الحياة والتطور، فإذا فقدناها ساد في حياتنا الضعف والفساد والدمار.

لا نجد الكواكبي مكتفيا بالتلميح في نقد السلطة العثمانيـة، بل نجده على لسان الراوي (السيد الفراتـي) الـذي رأينـاه الشخصية المركزية في (أم القرى) ولسان حـال الكـواكبي، يصرح بأن الخلل أصاب المملكة العثمانية، في الستين سـنة الأخيرة، كان بسبب أنها عطلت أصولها القديمة ولم تحسـن

التقليد ولا الإبداع، وصرف السلطان قوة سلطنته كلهـا فـي سبيل حفظ ذاته الشريفة وانفراده بالسلطة.

ينتقد الكواكبي السلطة العثمانية نقدا موضوعيا، يستند في ذلك على معاناته الخاصة ومعاناة أبناء وطنه (حيـث كـان يكتب مظالمهم ليتم عرضها على المسؤولين) فقد ذاق الظلـم وكبت الحرية، فكانت معاناته جزءا من المعاناة العامة التـي عايشها بشكل يومي، عبر ذاته وعبر حسه المرهف بـالقهر العام، لذلك نجده يتناول إدارة هذه السلطة بالنقد مستفيدا مـن تجربته وثقافته القانونية والمدنية.

- فهي لا تنتبه لاختلاف الأجناس التي تحكمها، فتتمسك بأصول الإدارة المركزية مع بعـد الأطـراف عـن العاصمة، وتزيد الأمر تعقيدا حين تميز بين أجنـاس الرعية، ولا تقيم المساواة بين رعاياها.

- لا تحسن اختيار القـادة والـولاة، ولا تعـاقبهم إن أخطؤوا، وهي تكثر من العمال دون حاجة سوى أن تحيط نفسها بالمتملقين، بل تميز الأسـافل وتجعلهـم ولاة، وهكذا يتم التعيين في دوائرهـا وفـق قـانون المحسوبيات، لا وفق مبدأ تكافؤ الفرص.

- الضغط على الأفكار المتنبهـة الواعيـة، ومـداراة المطلعين على عيوب السلطة العثمانية، كيلا ينفثوا ما في صدورهم، ويطلعوا العامة على الحقيقة فتثـور، (أي بلغة عصرنا) كبت الحريات ومنع المثقفين مـن ممارسة دورهم التنويري.

وقد وضع الكواكبي يده على أهـم غايـة تسـعى إليهـا السلطة، وهي أن يبقى الشعب جاهلا، فيبقى بالتـالي خانعـا لأمرائه الجاهلين الـذين يتشـدقون بالإصـلاح السياسـي، ويبطنون الإصرار والعناد على ما هم عليه من إفساد ديـنهم ودنياهم.

تبدو لنا سعة أفقه واضحة حين لا يحمل مسـؤولية هـذا الضعف والفساد للأمراء فقط بل يشارك الشعب بسبب ضعفه وجهله بهذا الوضع المتردي، فالأمراء هم "**لفيف منا، وهـم أمثالنا من كل وجه، وقد قيل "كما تكونون يولى عليكم" فلو لم نكن مرضى لم يكن أمراؤنا مدنفين...**"**(٦)**

نلاحظ أننا أمام باحث موضوعي واسع الأفق، إذ لا يرى العيب في الأمراء وإنما يراه أيضا في أبناء الشعب، الـذين يغرقون في عالم الجهل، إلى درجة ألفوا معها الـذل، حتـى

إنهم لشدة جهلهم يقلبون الحقائق، فيرون في طالبي الإصلاح مارقين عن الدين لمجرد أن الأمير مسلم، مع أنه يخرب البلاد بظلمه.

إذاً ينتبه الكواكبي إلى طرفي المعادلة الرئيسيين (الحاكم والمحكوم) فلا يلقي تبعة الاستبداد وتخلف البلاد على عاتق الحاكم فقط، فالمحكوم مسؤول عن ضعفه وجهله، لذلك فإن أي تطور أو نهوض لن يكون إلا من صنع الأفراد المحكومين، والكواكبي هنا يقتدي بالآية الكريمة "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"(سورة الرعد، آية رقم ١٠).

وتبدو لنا النظرة المتعمقة والمتفهمة، لدى الكواكبي، حين ينتقد السلطة الاستبدادية **لكونها غريبة عن رعيتها أي غير متجانسة معها**، فقد لاحظ أن أعظم الملوك والقواد الفاتحين كانوا متجانسين مع رعاياهم وجيوشهم في **الأخلاق والمشارب واللغة** تجانسا تاما، كأنهم رؤوس لتلك الأجسام، لا كرأس جمل على جسم ثور...

إن التطابق بين الحاكم والمحكوم الذي يسعى إليه الكواكبي يجعل الأمة تعد رئيسها رأسها، فتتفانى في حفظه

كما يتفانى في رعايتها، وهو، هنا، لا يكتفي بالتلميح إلى أن السلطة العثمانية غريبة عن العـرب، بـل نجـده يصـرح مستخدما قول الحكيم المتنبي:

إنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

كذلك يبين أن افتخار الأتراك بمحافظتهم علـى غيريـة رعاياهم (فلم يسعوا إلى استتراكهم) هو كذب وادعـاء، لأن السبب الحقيقي وراء ذلك هو بغضهم للعرب واحتقارهم لهم، ويقدم دليلا على ذلك أقوالهم التي تجري على ألسنتهم مجرى الأمثال (ديلنجي عرب: العرب الشحاذون، عرب عقلي: عقل عربي أي صغير، پس عرب: عربي قذر، وهم يطلقون لفظة عرب على الرقيق وكل حيوان أسود...(٧)

نلاحظ أن الكواكبي يستفيد من إتقانه للغة التركية، فيتتبـع دلالات لفظة (عرب) في هذه اللغة، فيصل إلى نتيجة أن هذه اللفظة لا تحمل سوى دلالات سلبية، تنم عن احتقار للعرب، وابتعاد الهوة بين الحاكم التركي والمحكوم العربي!

لذلك شذّ الأتراك، برأيه، عن غيرهم مـن الأمـم التـي حكمت العرب، إذ حاولت أن تنسجم مع رعاياهـا، فتعلمـت

العربية (كآل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والجراكسـة وآل محمد علي) باعتبارها لغة القرآن الكريم والإسلام.

يلفت النظر، هنا، إلى أهمية اللغة الواحدة في خلق عوامل تجمع الأمة، وتجعلها متجانسة، لأن اللغة ليست فقط مفردات وتراكيب محايدة، وإنما هي تجسيد لفكر الإنسان وروحه.

وهكذا رسخ العثمانيون عوامل الفرقة في الأمة برفضـهم تعلم لغة القرآن الكريم، وقد بدا لنا تعصبهم العرقي بأوضـح صوره حين حاولوا التتريك في أواخر الدولة العثمانية.

وقد لاحظنا أنه كان ينتقد ممارسة ولاة الدولة العثمانيـة للتعصب الديني، منذ وقت مبكر، فـي مقالاتـه الصـحفية، وخاصة في صحيفته (الشهباء) فيبين أن التمييز بين المسلمين والمسيحيين سيؤدي إلى التذمر ويقوي عناصـر الانشـقاق والتنازع، مما يؤدي إلى طمع الأغيار في الدولة العثمانية.

لهذا ليس غريبا أن يؤدي مثل هذا النقـد إلـى إغـلاق الصحيفة (١٨٧٨)كما سبق وأشرنا، لكن ذلك لم يـؤدِ إلـى تخلي الكواكبي عن أفكاره، سنجده في (أم القرى) بعد ذلـك بحوالي عشرين سنة، يبين أن من واجب "جمعية الموحـدين" الاعتناء شرعا بتعليم الأمة المجاملة مـع غيـر المسـلمين

وحسن المعاشرة ومقابلة معروفهم بخير منه، ورعاية أهـل الذمة والتأمين والمساواة في الحقوق كي يتم تجنب التعصب الديني أو العرقي، مما يضمن قوة الدولة.

إن المتتبع لأعمال الكواكبي يلاحظ أنه ليس هناك ما يدل "أن مهاجمة الكواكبي العنيفة للأتراك، قد جعلت منه عربيـا قوميا بالمعنى الضيق للكلمة، وإنما كـان مفكـرا إسـلاميا مصلحا لحال المسلمين، خاصة بعد أن لاحظ أن السـلاطين العثمانيين لم يكونوا مخلصين لإسلامهم، لأنهـم قـدموا أولا مصالحهم السياسـية التوسـعية علـى مصـالح الإسـلام الحقيقية..."(٨) كما يقول الأستاذ حسن سعيد.

٣_إهمال العلم:

ومما يلفت النظر أنه جعل إهمال العلـم والعلمـاء مـن الأسباب السياسية التي تسهم في ضعف الأمة، وبذلك نجـده يربط النهوض السياسي بالنهوض التعليمي، فيبرز كيف أساء الحكام إلى الأمة حين أهملوا العلم وأفقروا العلماء، وقربـوا المدلّسين، وفوضوا خدمة الدين إلى الجهلاء.

ويرى من أسباب ضعف الدولة أيضا: اقتصـارها علـى العلوم الدينية وإهمال العلوم الرياضية والطبيعية، وهو يلفت

النظر إلى أن هذه العلوم آخذة في النمو في الغرب، فيلتقـي، في نقده هذا، مع رواد النهضة، فقد رأينا رفاعة الطهطـاوي يبين أن العلماء في الغرب ليسوا علماء ديـن كالشـرق، إذ يطلق اسم العلماء على من له معرفة بالعلوم العقلية(٩).

وقد بين الكواكبي أن دواء الضعف والتخلف يكمـن فـي الاهتمام بهذه العلوم العقلية النافعة، كما كان المسلمون فـي الماضي، فيجلبون إلى ديـنهم منجـزات العـالم المتمـدن، ويبعدون عن عقولهم الخرافات، وهو ينبهنا إلـى خطـورة الابتعاد عن العلوم، إذ يتحول الإنسان إلى ما يشبه الحيوان، كما قال ا تعالى "**هل يستوي الـذين يعلمـون والـذين لا يعلمون**"**(سورة الزمر آية رقم ٩)** فهو يخاطـب اللاوعـي المقدس لدى المتلقي، فيقدم للمسلم شاهدا على أهمية العلم من الكتاب الذي يقدسه، فلا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، فيؤثر على الوجدان الديني، مما يزيد حجتـه قـوة، ويـدفع المسلم إلى إنقاذ حياته بالعلم كما أمره دينه.

وبذلك يضع يده على أبرز عوامل النهضة التي سبقنا إليها الغرب، وهو العلم، فيحاول أن يقـدم لنـا تجربـة الأجـداد المسلمين في الاستفادة من علوم الأمم الأخرى، ويدعم رأيـه

هذا بما يكون ضمير المسلمين وثقافتهم، فيذكر لهم آية قرآنية تحض على العلم، وبذلك يجنّد الموروث الديني إلى جانب التعلم من إنجازات الآخر الذي سبقنا إلى التطور والنهضة.

٤_أسباب أخلاقية:

إن ما يقصده الكواكبي بالأسباب الأخلاقية هي الأسباب التربوية والاجتماعية والاقتصادية، أي جميع مناحي الحياة التي أسهمت في فتور المسلمين.

الأسباب التربوية والاجتماعية:

يشخص لنا الكواكبي أمراض الأمة الإسلامية، فقد ساد الجهل فيها وارتاحت إليه، كما بدت الأدوات التي تسهم في إزالته فاسدة: التعليم، الوعظ، الخطابة، التربية الدينية والأخلاقية، وكما لاحظنا سابقا، فضح الكواكبي بعض الأوهام السائدة التي تؤسس لسيطرة التخلف على حياتنا: كالاهتمام بعلوم الدين دون سائر العلوم، حتى في هذا المجال نجده يوضح التوهم، الذي كان سائدا في عصره، وهو أن علم الدين قائم في العمائم وفي الكتب لا في العقول، بالإضافة إلى معاداة العلوم العالية (الطبيعية).

وقد وجدناه يبرز أسبابا للضعف تمتزج فيهـا الجوانـب التربوية بالاجتماعية، مثل ترك المرأة دون تعليم بدعوى أن تعليمها يؤدي إلى الفجور، فيبين أن هذه الـدعوة باطلـة إذ **"ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلـة، ولكـن الجاهلة أجسر عليه من العالمة".**

وهو بطريقة غير مباشرة يرد على أولئك الرافضين لتعليم المرأة، فيبين أن التعليم يزيدها وعيا وإحساسا بالكرامة، على نقيض المرأة الجاهلة التـي لا تسـتطيع أن تفكـر بأبعـاد تصرفاتها.

ويوضح لنا الكواكبي أن جهل المرأة لا ينعكس على ذاتها فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى الزوج والأولاد، فالرجل "ينجـر طوعا أو كرها لأخلاق زوجته، فإن كانت سافلة، تسـفّل لا محالة، وإن كانت غريبة بغضتّه في أهله وقومه، وجرته إلى موالاة قومها، ولا شك أن هذه المفسدة تستحكم فـي الأولاد وأكثر الأزواج...وربما كان أكبر مسبب لانحـلال أخـلاق الأمراء المسلمين أتاهم مـن جهـة الأمهـات والزوجـات السافلات...إن أعاظم الرجال لا يوجدون غالبا إلا من أبنـاء وبعول نسوة شريفات أو بيوت قروية..."(١٠).

وهكذا فإن التردي الاجتماعي والتربـوي الـذي تعيشـه المرأة لا بد أن ينعكس على الحياة السياسـية، ويسـهم فـي ترديها أيضا، فالمرأة الحرة تنشئ الأحرار، والعبـدة تنشـئ العبيد، لذلك لن نستغرب حماقة الأمراء وتمسكهم بالاستبداد وانغماسهم بالترف والشهوات وابتعادهم عن النبلاء الأحرار وتقريبهم المتملقين الأشرار، كل ذلك بسبب الجهـل الـذي رضعوه من إماء ذليلات!

يلاحظ المرء أن الكواكبي اهتم بتربية الإنسـان، سـواء أكان أميرا أم إنسانا عاديا، لأنه اللبنة الأساسية فـي عمليـة النهوض والتطور، لذلك توقف عند التربية الذليلة موضـحا معالمها بلغة ساخرة، متغلغلا في أعماق النفوس الذليلة التـي يدعوها بـ **(الواهنة)** راصدا عاداتها السيئة وأفكارها الخاطئة قائلا:

"وهؤلاء الواهنة يحقّ لهم أن تشقّ عليهم مفارقة حـالات ألفوها عمرهم، كما قد يألف الجسم السقم، فلا تلذ له العافية، فإنهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الأدب مع الكبير، يقبلون يده أو ذيله أو رجله، وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبيـر ولـو داس رقابهم، وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحـت المطـارق،

وألفوا الانقياد ولو إلى المهالك، وألفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ذاك يتطاول وهم يتقاصرون، ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الأرض كأنهم للموت مشتاقون.

وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق، وجعل عندهم المخازي مفاخر فصاروا يسمون التصاغر أدبا والتذلل لطفا والتملق فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، كما يسمون دعوى الاستحقاق غرورا، والخروج عن الشأن الذاتي فضولا، ومد النظر إلى الغد أملا، والإقدام تهورا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحب الوطن جنونا"(١١).

يجسد لنا الكواكبي أفكاره الاجتماعية الناقدة، في كتابه "أم القرى"، بأسلوب أدبي حار، ينبض بمشاعر الألم لما آل إليه حال المسلمين، حتى بات الذل مرضا يألفه الإنسان الضعيف إلى درجة لا يفضل الشفاء منه، وقد عم الفساد والتشوه حتى شمل المفاهيم التربوية التي ينشأ عليها الإنسان، التي من المفترض أن تكون في صالحه، فبات احترام الكبير انسحاقا أمامه، مع أن هذا الكبير لا يستحق الاحترام (فيقبلون يده أو ذيله أو رجله) نلاحظ هنا اللغة الساخرة التي تشمل الإنسان

المشوه سواء أكان سيدا (له ذيل) أم عبدا (يرضى بأن يقبل حتى الذيل) وبذلك سلخت التربية المشوهة سماتهم الإنسانية (حين قبل أحدهم الذل والثاني حين رضي أن يكون مستبدا مذلا للآخرين) فانحدرت الحياة الإنسانية إلى مهاوي الحياة الحيوانية!!

استخدم الكواكبي، هنا، اللفظة الساخرة معتمدا على الدلالة النقيضة (ألفوا الاحترام...) يقصد أنهم ألفوا الذل، وهو يبين لنا كيف يقلب الإنسان الذليل دلالات اللغة، فيحمل ألفاظ الذل التي يستخدمها مع المستبد معاني جديدة نقيضة، إنها ألفاظ الأدب واللطف لا الهوان والخزي، وهو يقلب دلالات الألفاظ النبيلة إلى دلالات الألفاظ السيئة!

هذا التلاعب اللغوي يعكس لنا فهم الكواكبي لنفسية الإنسان الذليل، الذي يريد أن يخفف مظاهر ذله بادعاء الأدب واللطف، ويهرب من متطلبات الحياة الكريمة العزيزة ومتاعبها بادعاء التعقل! فكأنه يضحك على نفسه، ويموه حالته السيئة ببعض كلمات تطفئ قلقه، لهذا لن نستغرب شيوع لغة التناقضات في هذا النص التي توحي لنا بانهيار القيم الأصلية وسيطرة قيم الضعف والحياة الذليلة (السقم/

العافية، يتطاول/ يتقاصر، السماء/ الأرض...) ومثـل هـذه اللغة المتناقضة تضفي حيوية على النص وتزيد قدرته علـى تجسيد بؤس الحالة التي تشيع بين المسلمين، إلى درجة تنقلب فيها الذلة إلى لطف واحترام!!

ومما زاد جمال نص الكواكبي استخدامه لغة ذات أبعـاد تصويرية، تزيد الفكرة وضوحا من جهة وتؤثر فـي فكـر المتلقي ووجدانه، فالأذلاء ألفوا الثبات علـى ذلهـم كثبـات الأوتاد تحت المطارق (لنلاحظ هذه الصورة والدلالة القويـة للفظة: مطارق، التي تبين مدى القهر الـذي يتعـرض لـه الإنسان، إذ تنهال عليه المطارق دون أن يحرك ساكنا، فقـد أصبح فاقدا لإنسانيته كالوتد) قد جاءت الصورة الثانية لتؤكد بشاعة الوضع الذليل الذي يصل بالحياة الإنسانية إلى أدنـى من حياة النبات، يلفت نظرنا استخدامه لفعل (ألفوا) للدلالـة على طغيان قانون العادة والألفة الذي يجعل وظيفـتهم فـي الحياة دون وظيفة النبات ذاك يتطاول معتزا بخدمة الحيـاة، في حين يتقاصر هؤلاء الأذلاء ملتصقين بالأرض، فشـتان بين صورة من يطلب السماء بعزته وبين من يطلـب القبـر بذله!

إذاً إن مثل هذا التصوير الذي يجتاح المخيلـة ويـؤرق الوجدان، فيزيد المتلقي نفورا من حياة الذليل ومـن بشـاعة ثباتها تحت مطرقة الاستبداد، فتبدو حياته هامدة لا أمل فـي تغييرها! لهذا يرضى الإنسان الـذليل أن يعـيش ملتصـقا بالأرض كأنه يشتاق القبر ولا يعرف سوى الحضيض، غافلا عن نعمة الحياة وروعة الحركة، في حين نجد حتى النبـات مزهوا بحياته، يطمح لتجاوز واقعه والوصول إلـى السـماء علوا ورفعة!

جسد لنا هذا التصوير التحريضي وهذه اللغة الاستفزازية روح الكواكبي الثائرة وفكره المتيقظ الذي طمح إلى التغيير، فيبدأ بتحريض واستفزاز الإنسان نـواة النهضـة الحقيقيـة، معتمدا على كل ما يملك من إمكانات جمالية وفكرية.

٥_التفرنج:

هناك مرض آخر عانى منه الإنسان المسـلم ومـا زال يعاني **(هو التفرنج)** وذلك حين يظن الكمال فـي الأجانـب، فيندفع إلى تقليدهم مهملا واجباته الدينية وعاداته القومية التي تهبه هوية خاصة به، لذلك يـرى مـن الواجـب محاربـة "المتفرنجين" بكل وسيلة، بل نجده يدعو الأدباء إلى ممارسة

دورهم في التوعية، وذلك بوضع الأهاجي والأناشيد بعبارات بسيطة محلاة بالنكتة، كي تنتشر على ألسنة العامـة، فيـتم القضاء على هؤلاء الواهنة، ونشر قيم أصيلة بين العامة.

إذاً يوحي لنا الكواكبي عبر هذه اللفظة الدقيقة (الواهنـة) بالمرض الشامل للعقل والجسد وهو يصيب أولئـك الـذين يرون في الأجنبي مثلا أعلى له، وهو لا يكتفي بالإيحاء بـل نجده يحدد لنا سمات الواهنة: إنهـم أنـاس أذلاء بائسـون فاشلون ممسوخو الشخصية أمام المستبد حين يرضخون له، وهم كذلك أمام الغربي حين يقلدونه!!

٦_الأسباب الاقتصادية:

انتبه الكواكبي إلى أن الأسباب السياسية، التي رأينا بعض ملامحها سابقا، في ضعف المسلمين، أدت كذلك إلى ضعفهم من الناحية الاقتصادية، فقد انحصر هـم النظـام السياسـي بالجباية المقلوبة، أي في الأخذ من الفقراء وإعطاء الأغنياء، وكذلك بات الاهتمام بالجندية مشجعا الناس علـى تفضـيل الارتزاق بها وترك الصنائع!! إذ يترك الناس الحيـاة التـي تعتمد على العمل اليومي الشـاق ليركنـوا إلـى الارتـزاق

الشهري الذي يبدو أكثر سهولة واستقرارا! وبذلك يتم إهمال الحرف والزراعة!

كذلك نجده يبين أثر إهمال الحقوق العامة على النفوس، إذ تصاب باليأس والخمول، فتترك العمل، بعد أن فقدت الحافز الذي يدفعها لبذل الجهد مادام العدل مفقودا! وهذا يؤدي إلى افتقاد الإنسان الإحساس بالأمان، هذا الإحساس الذي يعد ضروريا لاستمرار أي عمل وتطويره.

أما إهمال الرابطة الدينية فقد تجلى في انحلال نظام الحسبة (المراقبة) كما تجلى في فقدان القوة المالية الاشتراكية بسبب التهاون في الزكاة!

وقد بدا داء الفقر لدى الكواكبي داء عاما، فهو **"قائد كل شر، ورائد كل نحس، فمنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا، بل منه تشتت آرائنا في ديننا، ومنه فقد إحساسنا...**" فهو، إذاً سبب كل المصائب التي تحيط بالمسلمين (الجهل، الفساد، الذل، التهاون في الدين...).

وهو يحاول أن يبعد اليأس عنا، ويبث الثقة في نفوسنا، فيبين أننا نملك مقومات النهضة من حيث تكويننا الفطري، وعددنا الكثير، وغنى أرضنا، وشرعنا القويم، لذلك لا

ينقصنا عن الأمم الحية غير القوة المالية، التي أصبحت لا تحصل إلا بالعلوم وبالفنون العالية، وهذه لا تحصل إلا بالمال الطائل، فوقعنا في حلقة مفرغة، عسى أن نهتدي لفكّها، **وإلا أصابنا ناموس فناء الضعيف في القوي وبيننا الجاهل والعالم(١٢).**

إنه يدل الأمة على طريق النهوض، فيدعوها لامتلاك القدرة المادية التي لن تحققها إلا برعاية العلم والعلماء، يلفت نظرنا اهتمام الكواكبي بالقدرة الروحية التي تحققها الفنون، فترتقي بإنسانية الإنسان، فتشكل أساسا قويما لامتلاك القوة المالية، كما وجدناه يدل الإنسان على طريق تطوير وضعه الاقتصادي، فنجده يدعوه إلى العمل بإتقان، فيعطي العمل وقتا مناسبا وتفرغا، وأن ينفق على قدر ما يكسب، ويرتب أموره الدينية والدنيوية بما يتناسب مع دخله، وأن يقتصد في النفقة من أجل مرحلة العجز، وأن يربي أولاده (ذكورا وإناثا) على الاعتماد على النفس.

وقد انتبه منذ وقت مبكر إلى جانب فكري هام أسهم في تخلفنا وضعفنا، هو افتقاد النقد، رآه سببا مؤثرا في أخلاقنا وسلوكنا، إذ بفضل النقد نتعرف على عيوبنا ونحاول

تجاوزها، كما نتعرف على محاسننا فنقوم بتطويرهـا، ممـا ينعكس إيجابيا على حياتنا الأخلاقية والسلوكية، ومثل هـذه الفعالية النقدية مازلنا نفتقدها إلى اليوم ونتجاهل أهميتها، وقد سماها الكواكبي "**التباعد عن المكاشفات والمفاوضـات فـي الشؤون العامة**" فهو يقصد بـ"**المكاشفات**" إظهار العيـوب التي تنخر جسد الدولة، أما "**المفاوضات**" فيقصد بها الحـوار الذي يجب أن يدور حول القضايا العامة والأزمـات التـي تعرقل نهضتنا، ومن البديهي أن أي تطور حقيقي لا بـد أن يبدأ من نقد السلبيات التي تعوق مسيرته، ليتم تجاوزها على أسس واعية، وبذلك نستطيع القول بأن الكواكبي قد سبقنا في الانتباه إلى أهمية النقد والحوار، ومازال المفكرون العـرب ينادون بضرورتهما لأية نهضة حقيقية.

ولكن أيـن يكمـن الخـلاص والأمـل لـدى الكواكبي؟

إن هذا الخلاص لن يكون إلا لدى الشباب المتدين الـذي يحرص على القيام بواجباته الدينية ويتجنـب المنكـرات، لا يفتخر بعظام نخرها الدهر، ولا يرضى أن يكون حلقة ساقطة بين الأسلاف والأخلاف، لأنه يملك شخصية متميـزة غيـر

ممسوخة، لذلك يأبى الذل والأسر ويود أن يموت من أجـل كرامته، يحب وطنه ولا يبخل عليه بفكـره ووقتـه ومالـه، ويعلم أن **الإنسانية هي العلم والبهيمية هي الجهالة، يعـرف أن خير الناس أنفعهم للناس، وأن القنـوط وبـاء، وأمـا القضاء والقدر فهما السعي والعمل(١٣).**

ما يلفت النظر، هنا، هو هذا الفهم الجديد الـذي يقدمـه الكواكبي للقضاء والقدر، إذ يجعلهما مرادفين للعمل والسعي، بعد أن كانا مرادفين للتواكل والاستسلام في عصور خلت!!

إن الكواكبي يقدم فهما جديدا للموروث الديني، كي يجعلـه عامل دفع وبناء للإنسان، لذلك نجده يذكرنا بأن ا تعالى، جلّت حكمته رتب هذه الحياة على أسباب ظاهرية، ولم يشأ أن يجعلهـا كالآخرة عالم أقدار، فالتغيير لا بد له من معرفة الأسباب العقليـة التي تقضي على مسببات الضعف، لهذا دعا إلى تربيـة تعتمـد مبادئ قويمة تبني الإنسان من الداخل، مما يجعله نواة رأي عـام لا يتطرق إليه التخاذل.

دور المثقف ومسؤوليته لدى الكواكبي:

يحسن الإشارة في البداية إلى أن مصطلح "المثقف" لم يكن متداولا زمن الكواكبي، لذلك سـنجده يسـتخدم مقـابلا لـه مصطلح (الحكماء، العلماء، الفقهاء...)

جسد لنا الكواكبي عبر مواقفه الحياتية وكتاباته الصـحفية ومنشوراته من الكتب خير صورة للمثقف التنـويري الـذي يؤمن بأن خدمة الوطن واجبة على كل إنسان حسب إمكاناته، والذي يحس بمأساة التخلف التي تعيشها أمته، فيسـهم فـي نهضتها، ويرى معنى وجوده يتلخص فـي مسـاهمته فـي القضاء على الذل والضعف اللذين يكبلان أمته.

وقد لاحظ أننا نفتقد في أمتنا الحكماء ذوي النشاط والعزم الذين "**ينبهون الناس ويرفعون الالتباس**" فيجمعون بين الفكر الواعي والعمل بعزم، يضحون بأعز ما لديهم حفظا لشرفهم الذي لا يقوم إلا بشرف قومهم، بل **حفظا لحيـاتهم وحيـاة قومهم من أن يصبحوا أمواتا متحركين فـي أيـدي أقـوام آخرين.(١٤)**

إنه يحمل المثقف مهمة إيقاظ الناس وتـوعيتهم حتـى يستطيعوا معرفة واجباتهم وحقوقهم، وهـو لـن يسـتطيع القيام بمهمته هذه إلا إذا امتلك القدرة على التضحية وإلغاء أنانيته، عندئذ يستطيع أن يمتزج بقومه امتزاجا تاما فيرى شرفهم هو شرفه، وحياتهم هي حياتـه، وبـذلك يتفاعـل الخاص بالعام لديه، فيتمكن من حماية نفسه وقومـه مـن

الموات، إذ يصبح بإمكانهم الحفاظ على هويتهم والدفاع عن وجودهم تجاه المعتدي، وبذلك يضع الكواكبي المثقف بـين خيارين إما أن يسهم في تفعيل النهضة فيحيي أمته، وإمـا أن يتوانى عن ممارسة وعيه فيسهم في موتها.

إنه يرى بداية النهضة تكون بولادة إنسان جديد يمتلـك سمات خاصة بأمته، لذلك يحمل المثقف أمانة الحفاظ علـى كيان هذا الإنسان وهويته، كي يسـتطيع مواجهـة الآخـر المعتدي، ومثل هذا الدور لن يكون فاعلا إلا باجتماع الوعي بالممارسة، وهذا ما نزال نفتقده إلـى الآن لـدى المثقـف العربي، الذي مازال مكبلا بهمومه الذاتية أكثر من همـوم الوطن باعتقادنا!

وقد وجدنا القضية (٣١) في كتابـه (أم القـرى) بمثابـة توصية من جمعية الموحدين إلى الأمراء أن يتيحـوا لأحـد العلماء الغيورين في كل بلدة (أي للمثقف) صـفة محتسـب ديني على جماعة المسـلمين فـي تلـك البلـدة، يسـاعده مستشارون منتخبون من عقلاء الأهالي، وبذلك تتشكل جمعية احتسابية مهمتها النصيحة للمسلمين دون عنـف، وتسـهيل تعميم المعارف والمحافظة على الأخلاق الدينية، إنه يرتفـع

بهؤلاء العلماء الغيورين على مصلحة أمتهم إلى ما يشبه مقام الأنبياء، فهم يقومون بدور الهداية إلى خير الدنيا والآخرة.

وقد رأى في انعزال العلماء الحقيقيين عن الحياة العامـة، وانحراف العلماء الرسميين (الذين دعاهم الجهال المتعممين) داء دفينا وسببا من أسباب ضعفنا، فقد أفسد هؤلاء المدلسون الدين وجعلوا كثيرا من المدارس تكايا للبطالين ...ورغم ذلك نالوا بسحرهم نفوذا عظيما، مما ضيق على العلماء الخنـاق، لا رزق ولا حرية، فضاع العمل والدين، فاضطربت عقائـد العامة، وفقدت قوانين ا ، ففسدت دنيـاهم واعتـراهم هـذا الفتور.

وقد كرر القول بأن الفقهاء أحد أكبـر أسـباب انحطـاط المسلمين، فهم يضيقون الدين على المسلمين وذلك بتوسـيع دائرة أحكامهم وتكفيرهم، إلى درجة لا يكاد مسلم يصل إلى مرتبة الإيمان والنجاة، لتعذّر تطبيق جميع عباداته ومعاملاته التي يتطلبها هؤلاء الفقهاء المتشددون.

وبذلك أصبح الجمهور الأكبر من المسلمين يعتقدون فـي أنفسهم التهاون اضطرارا، فيهون عليهم التهـاون اختيـارا،

وبسبب هذا التشدد التجأ كثير من المسلمين إلى الصوفية التي تهون عليهم دينهم.

وعلى هذا الأساس بات هؤلاء الفقهـاء يمارسـون دورا مقلوبا، فبدل أن يقربوا الناس من الدين باتوا ينفرونهم، إنهـم أبعد ما يكونون عن روح الدين الإسلامي، الذي لمسناه فـي قول رسوله (ص) "**يسروا ولا تعسروا**" والسبب في ذلـك أن هؤلاء الفقهاء يعانون الجهل في أمور دينهم، ويعيشون على ما ألفوه من أفكار لدى آبائهم!

ولهذا كله لن يكون مستغربا أن نجد في توصيات الجمعية (جمعية أم القرى) وقضاياها (قضية ٢٧) توصية تدعو إلـى الاهتمام بإيقاظ فكر علماء الدين، وتنشـيطهم للسـعي فـي تطوير التعليم باتباع خمسة أمور هي:

١. تعميم القراءة والكتابة مع تسهيل تعليمهما.
٢. الترغيب في العلوم النافعة التي هي من قبيل الصنائع، مع تسهيل تعليمها.
٣. تخصيص كل من المدارس والمدرسين لنوع واحد أو نوعين من العلوم والفنون، لنجد في الأمة أفرادا متخصصين.

٤. إصلاح تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية، ليسهل تحصيلهما في أقصر وقت، فيتمكن الطالب من تحصيل العلوم النافعة الأخرى.

٥. السعي من أجل توحيد أصول التعليم وكتب التدريس.

وإذا كان يرى أن بداية النهضة التعليمية تتم على يد علماء الدين، فإنه في توصية أخرى (قضية ٢٩) يطور نظرته إلى العملية التعليمية وينتبه إلى أهمية النهوض بالإنسان القائم على ممارستها وتحسين ظروف حياته، وهو ينتبه إلى تلك العلاقة الدقيقة بين سوية المتعلم والمعلم، فيجعلها على أربع مراتب:

١. العامة ومعلموهم أئمة المساجد.

٢. المهذبون ومعلموهم مدرسو المدارس العمومية والجوامع.

٣. العلماء ومعلموهم مدرسو المدارس المختصة.

٤. النابغون ومعلموهم الأفاضل المتخصصون(١٥).

إذاً قد تكون بداية التعليم منوطة برجال الدين، لكن حـين يرتقي المتعلمون تصبح الحاجة ملحة إلى مدرسين مختصين، يستطيعون تناول علوم أخرى غير علوم الدين.

وقد انتبه الكواكبي منذ وقت مبكر إلـى أهميـة العنايـة بالطلبة النابغين، وذلك بفرزهم عن الطلبـة العـاديين فـي مدارس خاصة من جهة وبوضع أساتذة مختصين لتعلـيمهم من جهة أخرى، ومثل هذه العناية سـتكون أحـد العوامـل المؤسسة لبداية نهضة علمية باعتقادنا.

وقد أكد على قدسية مهنة التعليم كمهنـة الطـب، لـذلك يتوجب على أمراء الأمة التدقيق والحجر رسميا على كل من يتصدر للتدريس والإفتاء والوعظ ما لم يكن مجازا من قبـل هيئة امتحانية رسمية موثوق بها تقام في العواصم، وبـذلك نبعد الجهال عن ممارسة جهلهم في منـابر العلـم والـدين، لنحافظ على عقول الأجيال ووجـدانهم كمـا نحـافظ علـى أجسادهم.

يلفت نظرنا هذه المكانة الرفيعة التي يمنحها للمعلمين، إذ يجعلهم في مصاف الأطباء وفقهاء الدين وأئمـة الجوامـع، لذلك يجب أن يخضع هؤلاء جميعا للامتحان من قبل لجنـة

رسمية، فتنتخب العالم لممارسة هذه الوظـائف الحساسـة، وتحظر على الجاهل القيام بمثل هذه الوظائف.

وكذلك وجدناه في إحدى توصياته (قضية ٣٢) حريصـا على دعوة الدولة إلى تأمين الرزق والمكانة الرفيعة للعلماء، فتمنعهم عن كل ما يخلّ بشرفهم ومكانتهم، وبذلك يؤكـد أن بداية النهضة ستكون بالعناية بالعلم والعلماء.

موقف الكواكبي من العروبة:

لاشك أن انتماء الكواكبي العريق إلى بيت النبوة (ينتهـي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم ا وجهه) سـيجعله أكثر الناس اعتزازا بعروبته وإسلامه معـا، وربمـا أكثـر حساسية للوضع الذليل الذي تعيشه الأمة الإسلامية.

يلاحظ المتتبع لكتاب "أم القرى" اهتمامه بالإسلام أكثر من العروبة، لعل السبب في ذلك أنه يرى الإسـلام والعروبـة شيئا واحدا، لذلك يكون النهـوض بأمـة الإسـلام نهوضـا بالعرب، على اعتبار أنهم يشكلون نواة الإسلام، وقد بـين، كما رأينا سابقا، استحالة أي نهوض حقيقـي مـا لـم يكـن مصاحبا بنهضة تعليمية تبدأ بإصلاح اللغة العربية التي يجب أن تكون لغة المسلمين جميعا.

وقد ظهر اعتزازه بعروبته واضحا حين أعلن أن العرب هم أكفأ الناس لإزالة الضعف بين المسـلمين، لـذلك نجـده يشترط في الأعضاء العاملين والمستشارين في جمعيـة (أم القرى) القدرة على التكلم والكتابة بالعربية، أمـا الأعضـاء الفخريون فعليهم أن يتقنوا إحدى اللغات الأربع التي يتكلم بها المسلمون: العربية، التركية، الفارسية، الأوردية.

وبما أنه يرى أن السبب الأعظم لمحنتنـا هـو انحـلال الرابطة الدينية، لذلك يعول على أهل جزيرة العرب في حفظ الحياة الدينية والنهوض بها، جاعلا المركز الرسمي للجمعية العامة في "مكة المكرمة" ومبينا مزاياهم فيذكر ستا وعشرين ميزة تؤهل العرب لخدمة **"الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية"** على حد قوله.

ولو تأملنا هذه الميزات للاحظنا أنها مكتسبة من صـلتهم العميقة بالإسلام من حيث تأسيسه ونشره بين الأمـم، ومـن حيث التزامهم بأخلاقه ومبادئه (المساواة، الشورى، احتـرام العهود...) أو فطرية تنسجم مع حياة البادية (الأنفة، تحمـل قسوة العيش، عدم الاختلاط بالأمم الأخرى...) بالإضافة إلى

مميزات تتعلق بلغتهم العربية (لغة القرآن الكريم) فهي أغنى اللغات وأوسعها انتشارا.

رغم حماسته للعروبة لا نستطيع أن ندعي بأن الكـواكبي في هذه الفترة (١٨٩٨) كان من دعاة الانفصال عن الدولـة العثمانية صراحة (وإن وجدناه في ملحق الكتاب يلمح إلـى ذلك) وعلى هذا الأساس نجـده يعـدد خصـائص الأمـم الأخرى، إلى جانب خصائص العرب، جاعلا لها مقاما مهما، وإن لم يكن رئيسيا، فقد جعل لكل أمة وظيفة فـي الجامعـة الإسلامية، إذ أناط مسؤولية حفظ الحياة السياسـية ولاسـيما الخارجية بالترك العثمانيين، ومراقبة حفظ الحيـاة المدنيـة التنظيمية تليق بالمصريين، والقيام بمهام الجندية يناسـب أن يتكفل بها الأفغان وتركسـتان والقوقـاز يمينـا ومـراكش وإمارات إفريقيا شمالا، وتدبير الحياة العلميـة والاقتصـادية خير من يتولاها أهل إيران وأواسط آسيا...

نلاحظ أن مفهوم العروبة، بكل صفائه، يتجسد لديه فـي شبه الجزيرة العربية دون غيرها، لذلك تحـدث عـن دور المصريين في الجمعية وأهل شمال إفريقية دون أن يشير إلى رابطة العروبة التي تجمعهم مع أهالي شبه الجزيرة العربية،

ولا شك أن مفهوم العروبة قد تطور عما كان عليه زمن الكواكبي لهذا لا يحق لنا أن نلومه على فهمه هذا خاصة أنه كان في بداية تلمس طريق الوعي الذاتي.

وبما أن الجمعية يهمها أمر النهضة الدينية أولا، لذلك رأت أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها (الشام والعراق) وكي يدفع عن نفسه تهمة التعصب السياسي أو العرقي نجده يبرر أسباب ميل الجمعية للعرب وموطنهم شبه الجزيرة **(فهي مشرق النور الإسلامي، فيها الكعبة والمسجد النبوي، تقع في وسط الدول الإسلامية، وهي سليمة من الأخلاط الجنسية والدينية، بعيدة عن الأجانب والطامعين نظرا لفقرها الطبيعي(١٦)** إذ لم يكن قد اكتشف فيها النفط بعد.

إن هذه النزعة في تفضيل العرب على غيرهم من الأمم سبقه إليها الطهطاوي الذي رأيناه يقول **"العرب هم خيار الناس، وقبائلهم أفضل القبائل... ولسانهم أفصح الألسن، ولقد اشتهرت أمة العرب جاهلية وإسلاما بالفضائل..."(١٧).**

لعل الغاية من هذا الحديث لدى بعض رواد النهضة هي بث الثقة في النفوس الخانعة والضعيفة، لكن يضاف إلى

ذلك، لدى الكواكبي، أن هذه الإشارة إلى مميـزات العـرب وجزيرتهم العربية كانت أشبه بتمهيد منطقي، يريد منـه أن يقنعنا بما سنجده في الملحق من قرار خطير وهـو (إقامـة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة) وهذا إعـلان صريح برفض السلطة العثمانية التي كانت تـدعي الحفـاظ على الإسلام والتي جمعت بين السـلطنة والخلافـة زمـن السلطان عبد الحميد الثاني الذي عاصره الكواكبي وحاول أن يرد عليه بطريقة علمية ستظهر في مقالاته الصحفية (خاصة في جريدة "العرب" التي أصدرها في مصر) وعملية ستظهر في تأليفه لجمعية "أم القرى" لذلك يعد هذا الإعلان بعروبـة الخليفة إعلانا جريئا في تلك الفترة، إذ لم نجد رائدا من رواد النهضة يدعو إليه، فهو يطعن في أهلية الأتـراك لاسـتلام السلطة الدينية، خاصة أن السلطة العثمانية حاولت أن تستغل الرابطة الدينية التي تقوم بينها وبـين العـرب، لاسـتمرار سلطتها عليهم.

ومما يلفت النظر في دعوته للخلافة العربية أنـه جعلهـا خلافة دينية لا شأن لها بالسياسة، وهي تقوم على الشـورى، بل يجعلها أشبه بانتخاب رئيس للجمهورية، إذ يعـاد تجديـد

البيعة للخليفة (أي الانتخاب) كل ثـلاث سـنوات، كمـا أن الخليفة ليس لديه سلطة عسكرية، حتى حفـظ الأمـن فـي الحجاز يناط بقوة عسكرية مختلطة يكون قائدها من إحـدى الإمارات الصغيرة، يتلقى أوامره من هيئة الشورى(١٨).

وبذلك يبدو لنا وقد منح السلطة الدينيـة (الخليفـة) بعـدا رمزيا، إن هذا الخليفة يشكل استمرارا لنمط من الحكم كـان سائدا في الأمة الإسلامية، لكن الكواكبي يمنحه بعدا شكليا، إذ لا دور سياسي له ولا عسكري، بل نلاحظ أن إدارة أمـور الدولة تعود إلى مجلس شورى منتخب، وبذلك يعلـن عـن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، مبينا لنا إصراره على عدم تكرار النماذج السيئة للجمع بـين السـلطتين فـي نموذج حاضر هو السلطة العثمانية، وفـي نمـوذج غائـب حاضر في التاريخ الإسلامي (الخلافـة الأمويـة والخلافـة العباسية) إذ لم نجد في تاريخنا النموذج الصـحيح لاجتمـاع هاتين السلطتين إلا في العصر الراشدي، بل قد لا نجد سوى خليفة واحد في العصر الأموي استطاع أن يقدم لنا نموذجـا مشرقا لاجتماع السلطتين الدينية والسياسية (عمر بـن عبـد العزيز) .

ومما ساعده في إعلان هذا الرأي الخطير، في زمنه، هو الشكل التخييلي الذي اعتمده، باعتقادنا، فقد جعله بعيدا عـن صوته الخاص به، يأتي عبر رسالة يرسلها الصاحب الهندي تتضمن لقاءه بأمير (مجهول الاسم) وحواره معه، ثم رغبـة هذا الأمير في إرسال آرائه إلى السيد الفراتي، وقد أحاطـه، مع ذلك، بالسرية التامة، فلم نجد له اسما ولا بلدا ينتمي إليه، حتى عادته في إطلاق اسم رمزي على شخصياته تدل علـى بلدهم، نجده يتخلى عنها زيادة في السرية، اكتفـى بإحاطتـه بصفات نادرة **(أمير جليل، فاضل، من أعاظم نـبلاء الأمـة ورجال السياسة).**

إن دعوته إلى خلافة عربية مردها، إلى جانب الاعتـزاز بعروبته، ضيقه من السلطان التركي الذي أعلن نفسه خليفة، حتى إنه وصل حد الشرك بسبب غروره وظلمه، لهـذا أورد رأي رجال الدين في **تفضيل الحاكم الكـافر العـادل علـى المسلم الجائر،** وذلك حين سألهم هولاكو بعد دخوله بغـداد: أيهما أفضل (السلطان العادل الكافر أم الجائر المسلم)(١٩) .

إنه يريد أن يثبت في الأذهان أن وظيفة الحـاكم وظيفـة دنيوية الغاية منها العدل وإقامة المصالح العامة وإعمار البلاد

وترقية العباد، وأي حاكم يقوم بهذه الغاية، مهما كان دينه وجنسه، جدير بحكم المسلمين، لهذا وجدناه يجعل للخليفة العربي وظيفة دينية لا سياسية، فيفصل بذلك السلطة الدينية عن السلطة السياسية الدنيوية، وقد توصل إلى هذا الرأي نتيجة ما لاحظه من معاناة المسلمين في ظل الحكم العثماني، فقد أساء السلطان العثماني الحكم وتمادى في الإساءة نظرا لاجتماع السلطتين الدينية والسياسية لديه.

وقد لاحظنا أن الإمام محمد عبده يفصل أيضا بين هاتين السلطتين، إذ يؤكد أنه **"ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، هي سلطة خولها ا لأدنى الناس يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم"(٢٠)**.

لكن ميزة الكواكبي، باعتقادنا، أنه لم يكتفِ بالتلميح للفصل بين السلطة السياسية والسلطة الدينية بل وجدناه يصرح بذلك، وبذلك يكون قد سبق الشيخ علي عبد الرازق الذي أكد على هذا الفصل في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" الذي صدر عام (١٩٢٥) في حين صدر كتاب "أم القرى" عام (١٨٩٨).

قد يكون لبعض رواد النهضة المسيحيين (سليم البستاني) أثر في دعوته تلك، برأي جان دايه، لكننا نعتقـد أن معانـاة الكواكبي، سواء على صعيد ذاته أم قومه، قد كان لها أكبـر الأثر في هذا الفصل، خاصة وقد لاحظ كيف تستغل السلطة العثمانية هذا الجمع استغلالا كبيرا، وقد وجدنا ما يؤكد هـذا الفصل في مقالاته الصحفية خاصة التي نشرها في مصـر، بعيـدا عـن يـد السـلطة العثمانيـة، فيقـول مـثلا فـي "المقطم"(١٨٩٩) **"نصحت لأبناء ملتي في المقطم أن يجعلوا اتكالهم على أنفسهم في تدبير مصـالحهم ولا يلقـوا كـل اعتمادهم على الحكومة، وأن يراعوا دوران الزمان وتغيـر الأحوال طبقا لمقتضى العمران، فلا يتكلّوا على الدولة العلية في دينهم ودنياهم، بل يطالبوها بالواجب عليها فـي أمـور معاشهم ويقوموا هم بالواجب عليهم في أمور معادهم... إن الغاية التي تسعى إليها الدولة في زماننا دنيويـة محضـة، وأعني بها تأمين الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وسن القوانين العادلة لهم وإنفاذها فيهم، فإذا قمنـا نطلـب بلوغ الغاية الدينية اللازمة للجامعة الإسلامية مـن دولـة**

غايتها دنيوية محضة فطلبنا يذهب سـدى وسـعينا يكـون عبثا"(٢١).

لا نستطيع أن نتخذ من هذا القول، كما رأى الباحث جان دايه، أن الكواكبي كان مفكرا علمانيا، يريد أن ينحي الـدين جانبا، فيعزله عن الحياة الدنيوية ويجعله محصورا بالآخرة، بل لاحظنا اهتمامه الكبير بتجديد روح الدين، وجعله أسـاس كل نهضة في الحياة الدنيا، وهو حين يبعد السلطة الدينية عن السلطة السياسية يستطيع أن يبعد عنهـا القداسـة وبالتـالي يخضعها للحساب والنقد دون خوف.

وهو هنا يناقش دعاة الجامعة الإسلامية في مصر، ومـن بينهم صاحب "المنار" محمد رشيد رضا، الـذين هـاجموه واتهموه بالكفر ورقّ الكفار (الغربيين) فنجده يوقـع مقالتـه بـ (مسلم حر الأفكار) ويختمها قائلا "**فالواجب علينـا نحـن المسلمين أن نعول على أنفسنا وعلى أفرادنا لا على الدولة <u>في تعليم قومنا وإعلاء شأن ديننا وإعداد المسلمين لقبـول الجامعة الإسلامية،</u> ومتى استعدوا لها وأدرك عامتنا الغاية المقصودة منها، كما يدركها خاصتنا الآن، فحينئـذ يكـون زمان الدعوة إليها قد حان...".**

لا يرفض الكواكبي الجامعة الإسلامية، لكنـه يريـد أن تكون هذه الجامعة مطلبا شعبيا، لا مطلبا نخبويا، خاصة إذا عرفنا أن المثقفين المصريين تبنوها نتيجـة دعـوة أطلقهـا السلطان عبد الحميد، وهو يبحث عـن الطـرق الصـحيحة لتجسيدها على أرض الواقع، لذلك وجدناه يريد أن يؤسـس الجامعة الإسلامية على أساس نهضة دينية، يكـون للمثقـف دور مهم، في إيقاظ العامة والتأثير بها عن طريـق العلـم، فيعدهم لتقبل فكرة الوحدة الإسلامية على أسـس معرفيـة لا عاطفية، وبذلك يرتفع بالعامة إلى مستوى المثقفين، فـيحملهم مسؤولية النهضة، حين يزودهم بالعلم ليصـبحوا حريصـين على الوحدة فاعلين من أجلها.

إذاً ينفي، هنا، الكواكبي عن نفسه تهمة الكفر بطريقة ذكية مهذبة، حين يحاور من يخالفه الرأي بطريقة هادئة طارحـا بعض الأسس العملية التـي بإمكانهـا أن تحقـق الجامعـة الإسلامية الفكرة التي يؤمن بها الكواكبي ومن يتهمه بـالكفر (عن طريق تعليم العامة وتجديد الدين) مبينا أن هذه الجامعة لا تعني عدم الفصل بين السلطة الدينية والسياسية، مبينا عن

طريق المنطق أن هذا الارتباط ليس ضروريا، إذ إن سقوط الخلافة العباسية لم يؤدِ إلى القضاء على الإسلام.

يلفت نظرنا في هذا الحوار اللهجة الراقية والمهذبة التـي وجهها إلى (محمد رشيد رضا) الذي اتهمه بأقذع التهم، فكان رده بأن وصفه بالفاضل"**والغريب أن صاحب المنار الفاضـل نعى علي ما نعى وطعن في ما طعن، واتهمنـي بـالمروق والغدر**... " مفصحا في آخر المقال عن رغبته في اللقـاء لا في الصراع، لهذا يخاطبه بيا صاحبي ويوجه لـه نصـيحة صديق لصديقه "**اعلم يا صاح أني أحب أن أعيش معك ومع جميع الناس بحب وسلام. فالشغل كثير والعمر قصير، فـلا نضيعه في تنغيص العيش بقوارض الكلام، ولكن خذها مني نصيحة صديق لصديق ... إن من يقيم في هذا القطر وينكر الخلافة في الأستانة لا يوافقه وصف الحرية في هذه الديار برق الكفار**".

يبدو لنا الكواكبي قد عانى من صفة الكفـر والعبوديـة للغربيين التي وصفه بهما (محمد رشيد رضا) فرد عليه بأن من هرب إلى مصر من أجل الحريـة، ورفـض الخلافـة العثمانية يؤلمه أن توصف الحرية بنقيضها ويتهم بالكفر!!

إن هذا الحوار الهادئ مع الآخر المخالف في الرأي، وهذه الصفات الإيجابية التي وصف بها من وصفه بصفات سلبية مؤلمة، جعلت من محمد رشيد رضا صديقا حميما له، سيفسح له المجال في صحيفته "المنار" ليكتب مقالاته، وينشر أجزاء من كتبه، ويرثيه حين قتل قائلا: **"في يوم الجمعة ٦ ربيع أصيب الشرق بفقد رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشري...الصديق الكريم والولي الحميم، بل هدمت منا الركن الركين، وقوضت أقوى الدعائم والأساطين...".**

وهكذا فإن الحوار الهادئ المبني على احترام الآخر يؤسس لصداقة تنمي الأفكار وتقوي العلاقات الاجتماعية والثقافية، فلا يضيع عمر المثقف في المهاترات والشتائم، لأن هناك أموراً عظيمة تنتظره.

بناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن الكواكبي قد سبق رواد النهضة من معاصريه، وربما سبق الكثيرين من المفكرين المعاصرين اليوم، بالقدرة على الحوار الموضوعي، والتأكيد على ضرورة امتلاك المفكر الروح الديمقراطية، فلا يصر

على أنه يقدم الحقيقة المطلقة للآخرين، وأن هـؤلاء علـيهم الأخذ بها دون حوار أو تفكير، لذلك نجده يدعو (في كتابه أم القرى) المفكرين الرواد إلى "**عدم الإصـرار علـى الـرأي الذاتي، وعدم الانتصار له، واعتبار أن ما يقولـه ويبديـه كل منا، إن هو إلا خاطر سنح له، فربما كـان صـوابا أو خطأ، وربما كان مغايرا [لما في نفسه] اعتقـادا أو عمـلا، وهو إنما يورده في الظاهر معتمدا عليـه، وفـي الحقيقـة مستشكلا أو مستثبتا أو مستطلعا رأي الغير"(٢٢).**

إن طرح الأفكار لا يعني طرح الحقيقة الكاملـة، وإنمـا يعني إتاحة الفرصة للفكرة عن طريق الحوار مع الآخـرين لتثبيتها أو نقضها أو تطويرها، لهذا جعـل الفكـرة خـاطرا يخطر على بال الإنسان قد يحمل الصواب فيكون منسجما مع معتقدات المفكر وأفعاله، وقد يكون خاطئا غير منسجم مـع المعتقد والفعل، ولا شك أن الأفكار الخاطئة تعشّش في الذات لأنها لا تتنقى إلا إذا خرجت من إطار الذات عبر الحوار مع الآخر، وبذلك يشكل الحوار مع الآخرين ميزانا حساسا لمدى صلاحية الفكرة، فتزداد تبلورا وصقلا أو تبـدو ضـعيفة لا

أهمية لها، ومن هنا ضرورة الحوار الـذي يتـيح الفرصـة لنضج الأفكار.

ترى أ لهذا السبب جعل كتابه أشبه برواية تعتمد الحـوار بين شخصيات متعددة؟ تراه يريد أن يقـدم دلـيلا علـى أن الحقيقة لا تأتي من شخصية واحدة، بـل تـأتي مـن عـدة شخصيات يجمعها الحوار فيغني رؤاها ويصـقل أفكارهـا؟ تراه يريد أن يؤكد للمتلقي أن الحقيقة لا يمكن أن يملكها فرد واحد؟

هنا يحسن أن نشير إلى أن اختلاف الآراء فـي أسـباب انحطاط المسلمين الذي جسدته لنا شخصيات تنتمي إلى بلدان مختلفة، هو في حقيقته غنى في الرأي، ويشير إلى أن هموم المسلمين واحدة مهما اختلفت بلدانهم، إذ قلمـا نجـد سـببا للضعف خاصا ببلد مسلم دون آخر.

وقد أضفى الأسلوب الدرامي حيوية على أفكاره، فأتاح له الحوار أن يقدم رؤاه المتعددة حول ضعف المسلمين، بعيـدا عن الرتابة التي يحملها الصوت الواحد، ومثل هذا الحـوار يوحي للمتلقي بمشاركة جميع المسلمين في مناقشـة أسـباب الانحطاط بشكل ملموس وواقعي، لأننا لو تأملنا هذه الأفكار

المطروحة من قبل مفكرين ينتمون إلى عدة بلدان لوجـدناها تتمم بعضها بعضا، لا نلمس فيها تناقضا أو صراعا تفترضه طريقة تعدد الأصوات في الرواية.

وعلى هذا الأساس لا نستطيع أن نقـول: إن كتـاب "أم القرى" رواية بالمعنى الحديث للمصطلح، الذي لم يكـن قـد أثبت حضورا في عصره، رغم بعض المحاولات، بالإضافة إلى طغيان الصوت الواحد الذي هو صوت الراوي (السـيد الفراتي) كذلك يلاحظ المرء طغيان الهم الفكري على الهـم الفني، أي الأسلوب الواقعي المباشر على الأسلوب التخييلي.

ونحن لا نريد أن نحاكم هذا الكتاب، الذي لمسنا فيه بذور الرواية، بمقاييس عصرنا، بل نجد من الواجب أن نشير إلى أن مثل هذه العثرات مازالت الرواية العربية تعاني منها إلى اليوم، وبناء على هذا يمكننا القول: إن الكواكبي استطاع أن يقدم لنا فكره بطريقة تنأى عن المألوف في التعبير، فتسـتفيد من بعض المقومات التخييلية التي تعتمـد القـص وتجسـيد الشخصية للأفكار، مما يتيح لها الحيويـة، ويبعـدها عـن الرتابة، فهو يلجأ إلى وسيلة بسيطة تهب الحيـاة لأفكـاره،

وبالتالي يستطيع عبر هذه الطريقة أن يضمن تفاعل المتلقـي معها بشكل أفضل، مما لو قدمت بشكل نظري جامد.

إذاً لا أعتقد أن مصطلح "الرواية" كان ماثلا فـي ذهنـه، لكنه كان يبحث عن وسيلة أكثر قدرة على التعبير عما يجول في أعماقه من أفكار، فتزداد فاعلية وتأثيرا وجاذبية، وبالتالي تزداد انتشارا بين عامة الناس.

ويضاف إلى إنجاز الكواكبي الذي اجتمـع فيـه الفكـر بالتخييل إنجاز لغوي : هو تطويع اللغة العربية، التي كانـت في عصره لغة جامدة تغلـب عليهـا الصـنعة والتكلـف، فأصبحت على يديه لغة حية تجسد هموم الإنسان، فوجـدناها تستوعب هذه الهموم بكافة أشـكالها الفكريـة والاجتماعيـة والاقتصادية... ولاشك أن لعمله في الصحافة واقترابه مـن لغة عامة الناس (حين كان يكتـب تظلمـاتهم فـي رسـائل يرسلونها للسلطان) كل ذلك كان له أكبر الأثر فـي تطـوير لغته، إذ جعله على صلة بالحياة باحثا عن لغة يعبر فيها عن واقع معيش تنغصه هموم التسلط والضعف، فجعل من اللغة خير وسيط يصور بؤس الواقع المتردي فيهز وجدان الإنسان المسلم ، حين يتعرف مدى بؤس حياته، ويتنبه إلى ضـعفه،

عندئذ يبدأ بتعرف ذاته على حقيقتها، كما يتعـرف حقوقـه وواجباته، لذلك بين في مقدمة كتابه أنه يتوجه في كتابه هذا إلى المتلقي الجاد الذي يقرأ الكتاب قراءة واعيـة متتبعـة لا تعرف التصفح، فلا يصدر حكما نقديا على ما يقرأ إلا بعـد قراءة الكتاب بأكمله قراءة متعمقة، لذلك نجده يتوجه ناصحا المتلقي: **"أما إذا كنت من أمة التقليد وإسراء الأوهام، بعيدا عن التبصر، لا تحب أن تدري من أنت وفي أي طريق تسير وما حق دينك ونفسك عليك، وإلى ماذا تصير، فتأثرت مـن كشف الحقائق ودبيب النصائح، وشعرت بعـار الانحطـاط وثقل الواجبات، فلم تطق تتبع المطالعة، وتحقيـق العقـل والنقل في المقدمات والنتـائج، فأناشـدك الإهمـال الـذي ألفناه..."(٢٣).**

إذا يريد قارئا جادا لكتابه تقلقه أسئلة أمته المصـيرية، إذ لا يمكن لقارئ ألغى عقله واستسلم للتقليد والأوهام أن يستفيد من هذا الكتاب، إنه يبحث عن قارئ يتفاعل مع النص تفاعلا إيجابيا، خاصة أنه يقدم معرفة تنير عقله وتدفعه لتغيير حياته وسلوك الطريق الصحيح،، بعد أن يطـرد مشـاعر اليـأس والإحباط التي تكبله، إنه يريد أن يسهم عبر كتابه في صـنع

إنسان جديد لا يعرف الإهمال وينفض عن ذاته غبار الوهن، يحاسب نفسه من أجل النهوض بهـا، لأنهـا، كمـا يراهـا الكواكبي، بداية أي نهوض حقيقي للأمة، خاصة إذا لاحظنـا أنه يحمل الإنسان المسلم مسؤولية نفسه وأمته ودينه معا.

هنا لابد أن نتساءل: هل نستطيع أن نقبل قول العقاد: بأن الكواكبي كان "**يواجه القراء كما يواجـه المسـتمعين**"(٢٤) بمعنى أنه كان يستخدم الأسلوب الخطابي الذي يجعله يلقـي بالقلم جانبا ليتحدث إلى قرائه حديث الخطيب على المنبر؟

في الحقيقة تنوعت لغة الكواكبي فلم نجده يستخدم اللغـة الخطابية التي تعتمد الانفعال واللفظة الرنانة فقط، إذ لاحظنا استخدامه لغة المنطق التي تعتمد التحليل والتعليـل، وتبـدأ بمقدمات لتصل إلى النتائج، وهو في كثير من الأحيان يقـدم أفكاره بأسلوب تصويري يزيد الفكرة وضوحا كما لاحظنـا سابقا، ومثل هذا الأسلوب موظف لخدمة الفكرة وحيويتها من جهة، ولجذب المتلقي إلى متابعة القراءة من جهة أخرى.

وكما وظّف التصوير لخدمة الفكرة، نجده يوظف اللغـة التراثية (التناص الديني) من أجل ذلك أيضا، لهذا تبدو لنـا لغته أكثر إقناعا وأشد تأثيرا في وجدان المتلقي الذي يشـكل

هذا الموروث مكونا أساسيا من مكونات شخصيته، فها هو ذا يقول "**إن انحطاطنا من أنفسنا، إذ إننا كنا خير أمة أخرجت للناس، نعبد ا وحده، أي نخضع ونتذلل له، ونطيـع مـن أطاعه مادام مطيعا له، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، أمرنا شورى بيننا، نتعاون على البر والتقوى ولا نتعـاون على الإثم والعدوان، فتركنا ذلك كلـه، مـا صـعب منـه وهان"(٢٥).**

يتحول هذا النص في مجمله إلى لغة قرآنية، فتبدو أفكاره متجلية عبر قبس قرآني، يشكل لاوعي المسلم، كمـا يشـكل فكره، ويوجه سلوكه، وبذلك تكتسب لغته قوة تعبيرية مؤثرة في الوجدان، تحرض المسلم وتنير دربه إلى حياة جديدة.

لعل ميزة الكواكبي أنه لم يفصل الدين عن الحيـاة حـين نادى بفصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، فقد نـادى بأفكار إصلاحية تمتلك جذورا في الدين الإسلامي، وبذلك لم يكن الدين لديه شأناً شخصياً ينفع الآخرة بعيدا عن الدنيا، إذ رأى ضرورة أن يتجاوز المسلم حالة الضعف والانحطاط بما يمليه عليه دينه، أي بما يؤمن من تعاليم وأفكار، ولكن مـع الأسف مازال يهمشها، أو يتعامل معها بشكل آلـي، دون أن

ينتبه إلى دلالاتها الفاعلة التي يمكن أن تساعده على تغييـر حياته وتطوير مجتمعه.

وبذلك يبحث الكواكبي عن لغة مشتركة بينه وبين المتلقي، لغة يعايشها كل يوم خمس مرات على الأقل فـي صـلاته، فيدله على ما تحويه من دلالات غنية، ترقى بحياته، حولهـا المتلقي إلى لغة عادية يمارس عبرها طقوس عباداته بشـكل آلي، فينتزع بذلك روح اللغة ومعناها ليحولها إلى تمتمـات صوتية لا علاقة لها بنبض حياته.

كذلك نلاحظ أنه استخدم التناص الشعري باعتبـاره لغـة مشتركة تشكل وجدان المتلقي كما يشكلها التناص القرآنـي، لذلك نجده يستفيد من إمكانات الشعر التراثي في هز وجدان المتلقي والتدليل على صحة أفكاره، كما لاحظنا سابقا حـين تحدث عن أسباب ضعف المسلمين، وهو عدم انسجام الحاكم مع المحكوم، فالحاكم تركي والمحكومون عرب، فيأتي ببيت للمتنبي يدلل به على صحة قوله:

إنما الناس بـالملوك ومـا   تفلح عرب ملوكهـا عجـم

إن الكواكبي يدرك وقع الشعر على نفس المتلقي العربي، خاصة في تلك الفترة، لذلك نجده يبدأ كتابه بأبيات شـعرية

ألفها، تختزل أوضاع المسلمين التي سيوضحها نثرا فيما بعد، وهو بذلك يشد المتلقي إلى تتبع كتاب لم يكن مهيئا لمتابعة أسلوبه الجديد الذي يعتمد لغة جديدة بعيدة عن الصنعة والزخرفة التي كانت سائدة في عصره، فيلجأ إلى التمهيد له بلغة جذابة مألوفة هي لغة الشعر، يخاطب بها المتلقي قائلا:

دراك فإن الدين قد زال عزه	وكان عزيزا قبل غير هين
إلام أهل العلم أجلاس بيتهم	أما صار فرضا رأب هذا
هلموا إلى بذل التعاون إنه	بإهماله إثم على كل مؤمن
هلموا إلى (أم القرى) وتآمروا	ولا تقنطوا من روح رب
فإن الذي شادته أسياف قبلكم	هو اليوم لا يحتاج إلا لألسن

تقدم لنا هذه الأبيات أهم القضايا التي كانت تؤرق الكواكبي والتي ظهرت في ثنايا كتابه "أم القرى": ضعف الإسلام، مسؤولية العلماء عن هذا الضعف، ضرورة نبذ الخلافات والتوحد، العمل وفق نظام محدد كالجمعية، عدم اليأس، الوعي لأسباب الانحطاط ومن ثم تجاوزها...ومع ذلك لا يمكننا أن نقول إن لغة الشعر كانت طاغية في الكتاب، ما عدا المقدمة، أما بقية الكتاب فقد جاءت بلغة النثر

لغة الفكر والمنطق التي امتزج فيها التخييل والابتكار الذي تجلى في تجسيد عدة شخصيات تتحدث بأفكار متنوعة، نظرا لكونها تنتمي إلى عدة بلدان إسلامية، وبالتالي تكون هذه الشخصيات أكثر تأثيرا كما لاحظنا سابقا.

إذاً نستطيع القول إن الكواكبي سلك كافة السبل المألوفة وغير المألوفة كي يقرب كتاب "أم القرى" من المتلقي، فيضمن تفاعله مع هذه اللغة الجديدة عليه.

كما يمكن أن نعد هذا الكتاب كتابا في الإصلاح الديني والفكري الاجتماعي والاقتصادي، ومثل هذه المهمة لن تكون ما لم يمتلك الكتاب لغة جديدة ينطق بها، إذ لابد للنهضة الفكرية التي يسعى إليها المرء من أن يواكبها نهضة لغوية، وقد بدا لنا الكواكبي واعيا لهذا الإصلاح كل الوعي، فأكد ضرورة أن تقوم جمعية أم القرى بوضع مؤلفات بلغة **"وسطى عربية لا مضرية ولا عامية، وجعلها لغة لبعض الجرائد والمؤلفات الأخلاقية ونحوها مما يهم نشره بين العوام فقط"(٢٦)** لأن الدور التنويري الذي يضطلع به المفكر، لابد له من لغة تنويرية، تستطيع مخاطبة جميع الناس، فهو يراهم نواة أي تغيير حقيقي.

وبذلك قدم الكواكبي في كتاب "أم القرى" نموذجا جديـدا للكتاب الذي يضطلع بمهمة التنوير، اجتمـع فيـه الإبـداع والفكر.

بناء على هذه النتيجة لا نستطيع أن نقبل قـول الباحثـة اليهودية (سيلفيا حاييم) بأن الكواكبي كان في كتابه "أم القرى" ناسخا وليس مبدعا، ومما دفعها لهذا القول أنها لاحظت تلاقيا في بعض الأفكار بينه وبين أفكار (بلنت) ويـرى الباحـث (جان دايه)(٢٧) أنها فعلت ذلك لسببين: الأول أنها ترى كل كاتب عربي في عصر النهضة لا بد أن يكون تابعا لكاتـب أوروبي، والثاني: أن (بلنت) أصدر كتابه "مستقبل الإسـلام" في عام (١٨٨٢) أي قبل إصدار الكواكبي كتابه بفترة ثمانية عشر عاما فلا بد أن يكون قد اطلع عليه، ويلاحظ (دايه) أن كتاب (بلنت) يدور حول موضوع واحد هو الخلافـة، وقـد احتل هذا الموضوع ثلاثة أرباع الكتاب تقريبا، فـي حـين يلاحظ أن كتاب "أم القرى" توقف عند هذا الموضوع وقفـة سريعة، إذ كان الكواكبي مشغولا بتحديد المفهـوم الصـحيح للدين الإسلامي، ونهضة المسلمين، وقـد أنـاط بجمعيـة أم القرى تنفيذ هذا المفهوم وهذه المهمة، أما بلنت فقد خصـص

لمفهوم الإسلام الصحيح فصلا واحدا هو "الإصلاح المحمدي" وختم الكتاب بفصل بعنوان "اهتمام إنكلترة بالإسلام".

وبذلك اهتم كتاب "مستقبل الإسلام" بالشأن السياسي على نقيض كتاب "أم القرى" الذي اهتم بالشأن الديني، أما رأيها الذي يقول بتأثر الكواكبي بكتاب (بلنت) حين فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، فقد لاحظنا أن جميع رواد النهضة قد ركزوا على هذا الفصل، بالإضافة إلى أننا لاحظنا معاناة الكواكبي من اجتماع هاتين السلطتين بيد رجل واحد (يجبي الضرائب ظلما، يستبد، يقتل...).

وقد لاحظ (دايه) أن هذا الفصل بين السلطتين قد تم في مقالاته الصحفية التي ظهرت قبل كتاب (بلنت) بخمس سنوات، كما تم التأكيد على أهمية العروبة فيها، أي قبل أن يشير (بلنت) إليها كما تدعي (سيلفيا حاييم).

أعتقد أن الذي منح هذا الكتاب خصوصية إبداعية، وأبعده عن التأثر بالآخرين سواء أكانوا عربا أم أجانب هو اهتمام الكواكبي بتقديم أفكاره عبر شخصيات عدة، وعبر مكان وزمان محددين أحاطتهما هالة التقديس، فاستخدم أسلوبا

سرديا يجسد طموحه للتشويق والتأثير، كما يشـكل سـتارا وهميا يبعد عن نفسه تهمة القول المباشر، فتتحدث شخصيات وهمية بما يريد أن يقوله من كلام خطير، وبذلك تتيح له هذه الطريقة حرية التعبير وربما تنجيه من غضب السلطة.

الأمر الآخر الذي يجعله لا يبدو مقلدا لـ(بلنـت) تقـديم الكواكبي فهما حيويا للإسلام، يدل على معرفة عميقة بالدين الإسلامي، فقد حاول أن يقدم تفسيرا له يجعله أحد أهم ركائز النهضة، لا عاملا من عوامل تخلف المسلمين كما يراه الآخر الغربي والعربي العلماني.

****

الحواشي:

١. الأعمال الكاملة للكواكبي إعداد وتحقيق محمد جمال الطحان، مركز دراسات الوحدة العربيـة، بيـروت، ١٩٩٥.
٢. الأعمال الكاملة للكواكبي "أم القرى" ص ٣٤٩.
٣. المصدر السابق، ص ٣٠٦.
٤. المصدر السابق نفسه، ص ٢٩٢ بتصرف.
٥. المصدر نفسه، ص ٢٩٠.
٦. نفسه، ص ٢٨٩.
٧. نفسه، ص ٣٦٦ بتصرف.
٨. حسن سعيد "عبد الرحمن الكواكبي، جدلية الاسـتبداد والدين" سلسلة رواد الإصلاح (٥) قم، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٢٧.
٩. د. محمد عمارة "تيارات اليقظة الإسلامية الحديثـة، كتاب الهلال، ع (٣٨٠) أغسطس، ١٩٨٣، ص ٨٢ بتصرف.
١٠. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص ٣٧٠.
١١. المصدر السابق، ص ٣٧٢.

١٢. المصدر السابق نفسه، ص ٣٠٥ بتصرف.
١٣. نفسه، ص ٣٧٢_ ٣٧٣ بتصرف.
١٤. نفسه، ص ٢٩٨ بتصرف.
١٥. نفسه، ص ٣٨٢ بتصرف.
١٦. نفسه، ص ٣٩٠ بتصرف.
١٧. د. محمد عمارة"تيارات اليقظة العربية" ص ٩٣.
١٨. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص ٣٩٧_ ٣٩٨ بتصرف.
١٩. المصدر السابق، ص ٢٩٣.
٢٠. د. محمد عمارة "الإمام محمـد عبـده" دار الوحدة للطباعـة والنشـر، بيـروت، ط١، ١٩٨٥، ص٩٣ .
٢١. هذا المقطع من كتاب جـان دايـه "الإمـام الكواكبي: فصل الدين عن الدولـة، دار منشـورات سوراقيا للنشر، لندن، ١٩٨٨.
٢٢. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص ٢٨٧.
٢٣. المصدر السابق نفسه، ٢٧٤.

٢٤. عباس محمود العقاد "عبد الرحمن الكواكبي" دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالـة، القـاهرة، دون تاريخ، ص ٦٠.
٢٥. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص٢٩١.
٢٦. المصدر السابق، ص ٣٨٤.
٢٧. جان دايه "صحافة الكواكبي" مؤسسة فكـر للأبحاث والنشر، بيـروت، ط١، ١٩٨٤، ص١١٧ بتصرف.

■ ■

فلسفة النهضة في لغة الأدب

بعد ثلاثة أعوام من تأليف عبد الرحمن الكواكبي كتاب "أم القرى" أصدر كتابه "طبائع الاستبداد ومصـارع الاسـتعباد" (١٩٠١) الذي يعد استمرارا لكتابه الأول، حاول أن يبحـث في أحد أبرز أسباب تخلف المسلمين (الاسـتبداد) بعـد أن تحدث عنه في كتاب "أم القرى" حديثا سـريعا، ورأى أنـه يستحق وقفة متأملة تبحث في أصل الداء وتقتـرح الـدواء، وبذلك يمكننا القول بأنه قدم في هذا الكتاب خلاصة تجاربـه الفكرية، بكل ما تعنيه من معاناة يومية للظلم الذي وقع عليه وعلى قومه العرب، كما نتجت عن جهد معرفي دام ثلاثـين عاما قضاها مجاهدا الظلم ومنقبا عن أسباب تخلف المسلمين، متأملا معالم هذه الأسباب، وباحثا عن الدواء الشافي الـذي ينهض بأمته.

ومنذ الصفحة الأولى من الكتاب وفي العنوان الآخر الذي أضافه للعنوان الأصلي، نجده يبين أن أفكاره المطروحة في كتابه قد تكون صرخة في واد يضيع صداها فـي عصـره،

لكنها ستؤثر في العصور المقبلة وتدك عـرش الاسـتبداد، لهذا يقول:

"كلمات حق في واد إن ذهبت اليوم مع الريح

فقد تذهب غدا بالأوتاد"

إذا منذ الكلمة الأولى في الكتـاب نلمـس لديـه رؤيـة مستقبلية مستمدة من وعي الكاتـب بـأن الصـراع مـع الاستبداد، لن يكون سهلا بسيطا ولن يؤتي أكله سـريعا، لا بد من العمل الدؤوب مهما تكن الآلام والمثبطات، أعتقد أن مثل هذه الرؤية منحت أفكاره عمقا وجعلتها أكثر شمولية، خاصة أن ما يقدمه للناس هو صوت الحق وقـد صـاغته كلمات تنير درب الناس، وقد لا يصل نورها إلـى المتلقـي اليوم، لكنها ستصل إليه في المستقبل، فتدلّه على الطريقـة التي يستطيع بها خلع أوتاد الظلم.

لهذا لن نستغرب استخدامه لغة جديدة ترفض المـألوف، وهي اللغة نفسها التي لمسناها في كتابه "أم القرى" ويمكـن المرء أن يلاحظ وعي الكاتب بأنه يقدم الحق، فيبدو متحمسا لأفكاره، التي ستنير طريق الصواب لأمته، حتى إنـه فـي المقدمة يصرح بأنه **يخالف أولئك المؤلفين التقليديين، فـلا**

يتمنى العفو عن الزلل، وإنما يقول: هذا جهـدي، وللناقـد الفاضل أن يأتي بخير منه، فما أنا إلا فاتح باب صغير مـن أسوار الاسـتبداد، عسـى الزمـان يوسـعه، وا ولـي المهتدين."(١)

إن نبرة الثقة بالنفس التي نلحظها لديه لا تبلغ حد الغرور، لذلك يعترف بأنه عبر كتابه هذا يفتح بابا **صغيرا** في أسـوار الاستبداد، وبذلك يلج الكواكبي عالما جديـدا ويقـدم أفكـارا أصيلة لحمتها الإخلاص في العمل والبحث وسداها المقارعة اليومية للمستبد العثماني التي تصل حد المخـاطرة بالحيـاة وهجرة الأوطان والأهل، فهو يطبق ما جاء في الأثر "**مـن أعان ظالما على ظلمه سلّطه ا عليه**" فقد رأى أن إعانـة الظالم قد تبتدئ من مجرد الإقامة في أرضه، لهذا ترك حلب موطنه القريب من سلطة العثمانيين، وهاجر إلى مصر، حيث كانت تعيش فسحة من الحرية في عهد الخديوي عباس، لكنه رغم ذلك لم يأمن على نفسه من المستبد لذلك أصدر كتابـه باسم مستعار (الرحالة كاف) عام (١٩٠١) نظرا لما يحملـه الكتاب من أفكار خطيرة تقارع المستبد بالحجـة والمعرفـة،

وبعد نفاد طبعته هذه في العام التالي (١٩٠٢) أعاد طباعتـه مرة أخرى بعد تنقيحه.

قدم في هذا الكتاب دراسة دقيقة وعلمية للاسـتبداد، تعـد الأولى من نوعها في اللغة العربية، وإن كان قد أشـار فـي مقدمة كتابه إلى أن الكاتـب الإيطـالي فيتوريـو ألفييـري (١٧٤٩_ ١٨٠٣) قد سبقه في تأليف كتاب يتناول الاسـتبداد وعلاقته بالدين والعلم، ويبين كيفية الخلاص منه.

إن هذه الإشارة من قبل الكواكبي لم تعفّه من تهمة السرقة التي رمته بها الباحثة اليهودية (سيلفيا حاييم) كما رمته بتهمة سرقة كتاب "أم القرى" من كتاب "مستقبل الإسلام" للباحـث الإنكليزي (بلنت) فهي تراه قد سطا على محتوى كتاب "ديلا تيرانيدي" للباحث الإيطـالي (فيتوريـو ألفييـري) مدعيـة الادعاء نفسه الذي رأيناه سابقا حين اتهمته بسرقة كتـاب "أم القرى" بل نجد هذه التهمة تنسحب على جميع ما ألّفـه رواد النهضة العربية، إذ ترى هـؤلاء الكتـاب عـاجزين عـن التأليف، لذلك يقومون بسرقة كتب الأوروبيين.

بالإضافة إلى هذه المقولة، التي تتسـم بـالتعميم وعـدم الموضوعية، نجدها تدعي أن الكواكبي اطلع على الكتاب من

خلال صديق له يعرف الإيطالية (وهو أحد الذين يعملون في القنصلية الإيطالية) وبذلك تقر بأن الكواكبي لا يعرف لغـة أوروبية، وأنه لا يتقن سوى العربية والتركية والفارسية.

وهي تقوم بمقارنة بين فصـول الكتـابين فتصـل إلـى تشابههما، وبما أن ألفييري هو السابق فـلا بـد أن يكـون الكواكبي هو السارق.

يرد عليها الباحث (جان دايه) بأن الاقتباس لـيس عيبـا، وأن التأثر والتأثير أمر طبيعي بـين ثقافـات الأمـم، لكـن المشكلة أن الباحثة لم تدرس الكواكبي مقتبسا وإنما سـارقا، كي تؤكد مقولتها بأن كل رواد النهضة العرب سارقون لكتب الغربيين، فيبين لها (دايه) أنه لو كان سارقا في كتابه "طبائع الاستبداد" لكتاب ألفييري لما ذكر اسمه في كتابه حين قـال **"هذه قواعد رفع الاستبداد، وهي قواعد تبعد آمال الأسـراء وتسر المستبدين، لأن ظاهرها يؤمنهم علـى اسـتبدادهم، ولهذا أذكّرهم بما قد أنذرهم به (ألفييري) المشهور في مثل هذا المقام، حيث قال: لا يفرض المستبد بعظم قوته ومزيـد احتياطه، فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صـغير، وإنـي أقول ما من جبار قهار إلا ويأخذه ا أخذ عزيز منتقم..."**

إن السارق عادة يخفي اسم من سرق منـه، ولا يظهـره للعيان، لذلك كان على الباحثة كما يقول (جان دايه) أن تبين أين اقتبس الكواكبي وأين أبدع، مـع أن المـرء يلاحـظ أن معظم الأفكار التي وردت في "طبائع الاستبداد" كانت ثمـرة موهبته ونضاله المستمر.

من المؤكد أن كتاب (ألفييري) قد تـرجم إلـى التركيـة (١٨٩٨) واطلع عليه الكواكبي، واستفاد من بعض أفكاره في كتابه "طبائع الاستبداد" الذي نشره بعد ترجمة الكتاب بحوالي ثلاث سنوات (١٩٠١) لكن يلاحظ أن معظم أفكـاره التـي وردت في هذا الكتاب كان قد نشرها فـي جرائـده الـثلاث ("الشهباء" "الاعتدال" "العرب") والجريدتان الأولى والثانية قد ظهرتا قبل ظهور الكتاب بحوالي ثلاث وعشرين سنة، بـل وجدنا الكواكبي نفسه يعترف في مقدمة الكتاب بأنـه ثمـرة جهد دام ثلاثين عاما، لذلك يكون الاطلاع والاقتبـاس أمـرا طبيعيا، إنه يعني الهضم والتأثر الذي لابد منه للمثقـف إذ لا يخلو كتاب منه، لذلك يعد التأثر شيئا آخر يختلف عن السرقة التي ترميه بها الباحثة (حاييم)

ويبين (دايه) أمرا آخر بناء على قول (سيلفيا حاييم) بـأن كتاب "طبائع الاستبداد" قد صنف في المرتبة الخامسة عشرة بين الكتب الأكثر قراءة، وذلك في استفتاء جرى في مصـر بعد سنوات من صدوره، فهل يعقل أن ينال كتاب مثل هـذه المرتبة وهو متهم بالسرقة!!

ومن بين التهم التي تسوقها هذه الباحثة أن الكواكبي لـم يفهم الإسلام والسنة، أعتقد مع (جان دايه) أن هـذه التهمـة افتراء عليه، لأننا لاحظنا في كتابه هذا كما لاحظنا في كتابه السابق "أم القرى" تعمق الكواكبي في الدين الإسلامي، وقـد ظهر ذلك في تفسيره لآيـات القـرآن الكـريم والأحاديـث الشريفة، كما ظهر في اعتماده على آراء الفقهاء في الأخـذ منها أحيانا ومناقشتها وردها أحيانا أخرى، لكن فيما يبدو أن الصورة المشرقة للإسلام التي قـدمها الكـواكبي أزعجـت الباحثة فلم تجد بدا من تهمته بعدم فهمه للدين الإسلامي!!

كذلك يلاحظ (جان دايه) أن (سيلفيا حـاييم) قـدمت آراء متناقضة فهي تارة تقول بأنه تأثر بـ(ألفييري) وتارة بكتاب "العقد الاجتماعي" لـ(جان جاك روسو) وتارة أخرى بالمفكر الفرنسي (فورييه)(٢).

إذاً الاستفادة من الغربيين أمر يختلف عن تقليدهم، لذلك لم نجد هذه الاستفادة سمة طاغية على الكتاب، فقد استطاع أن يمنح الكتاب بصمة خاصة به، إذ غاص في خصوصية مجتمعه، وحاول أن ينجز كتاب "طبائع الاستبداد" على هدي ثقافته ودينه وسلوك أبناء أمته، لذلك بدأ بتعريف الاستبداد مبينا علاقته بالدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقي ثم بين كيف يمكن الخلاص منه.

تعريف الاستبداد:

قبل أن يعرف لنا الكواكبي الاستبداد، يحدد لنا مظاهره على ألسنة باحثين مختلفين يلبسهم الكواكبي صفات متنوعة، فبعضهم (المادي، السياسي، الحقوقي) وبعضهم (الحكيم، الأبي، المفادي...) لذلك يمنحهم الأهلية لنقد الوضع القائم، فنجدهم يوضحون مكمن الداء وأعراضه (قوة الحاكم، استعباد البرية، الخضوع للسلاسل، تغلب السلطة على الشريعة، مشاركة ا في جبروته، وجود رؤساء بلا زمام، التعالي على الناس باطلا، حب الحياة) وبعد تشريح أسباب الداء نجد هؤلاء العلماء الحكماء يحددون الدواء (مقاومة

الحاكم المستبد، الحرية، تغليب الشريعة على السلطة، توحيد ا حقا، ربط الحاكم بقيود، تذليل المتكبرين، حب الموت) .

ولاشك أن اعتماد الكواكبي صيغة الجماعة التي تدل على آراء مجموعة الباحثين والعلمـاء (الـذين يحملـون أنـزه الصفات) أبعد عن طرحه النبرة الفردية، وجعـل الخـلاص يأتي على لسان جماعة المفكرين، مما يهب آراءه مصـداقية وقوة إقناع، إذ ينفي عنها السمة الفردية التي قد تؤدي إلـى الزلل، ويجعلها رأيا جماعيا يتفق حول صحته علماء القـوم الذين يجمعون أفضل الصفات الخلقية إلى جانب العلم.

يلاحظ المرء أن معظم مظاهر الاستبداد حصرها بالحاكم، لذلك حين يعرف لنا الاستبداد يجعله "صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما، التي تتصرف في شؤون الرعية، كمـا تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين، وتفسير ذلك كون الحكومة إما هي غير مكلفة بتطبيق نصوصها على شـريعة أو على أمثلة تقليدية أو علـى إرادة الأمـة، وهـذه حالـة الحكومات المطلقة، أو هي مقيدة...لكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى، وهذه هي حالة أكثر الحكومـات التـي تسمي نفسها بالمقيدة أو بالجمهورية...وأشد مراتب الاستبداد

التي يتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية..."(٣).

إذاً مع السلطة الاستبدادية، التي تتخذ صفات مطلقة، يلغى القانون أو العرف عندئذ ينتفي أي حساب وأي عقاب يمكن أن تخضع له هذه السلطة، لذلك تسير أمـور الدولـة علـى هواها، لا تهتم إلا بمصالحها الخاصة، وينتبه الكواكبي منـذ وقت مبكر إلى أن مثل هذه الانحرافات ليست حكـرا علـى النظام الملكي، بل من الممكن أن تصيب السلطة التي تسمي نفسها بالمقيدة (أي الجمهورية) فهي تلتقي مع النظام المطلق في كونها تحكم وفق مصالحها الخاصـة، بعيـدا عـن أي حساب، لهذا تدوس على مصـلحة الرعيـة، دون أي رادع، وهو يبين أن أفظع أشكال الاستبداد حين يتجسد الحكم بفـرد يملك جميع السلطات السياسية والعسكرية والدينية، ومن ثـم يستطيع أن يورثها.

ولهذا ليس غريبا أن تجتمع في الاستبداد مصائب الـدنيا، فهو بلاء، كما يوضح الكواكبي، "لأنه وباء دائم الفتن، وجدب مستمر بتعطيل الأعمال، وحريق مستمر بالسلب والغضـب،

وسيل جارف للعمران، وخوف يقطع القلوب، وظلام يعمـي الأبصار..."

مع وباء الاستبداد ليس غريبا أن ينتشر التخلـف، فهـو سبب ضعفنا الاقتصادي، يقضي على أي أمل في التطـور، ينـزع الطمأنينة من القلوب، ويسدل أسـتار الجهـل علـى حياتنا، فالاستبداد لا يكتفي بتدمير الإنسان وإنما يدمر الأمـة بأكملها تدميرا يشمل أوجه الحياة، لذلك جعله وباء يصـيب الإنسان وجدبا يصيب الأرض، كما جعله مرادفـا لصـنوف الدمار كالحريق والسيل والظلام فيبدو لنا ناشـرا للخـوف والموت أينما حل.

إذاً يعد الاستبداد في نظر الكواكبي قرين الدمار بأشـكاله المعنوية (الخوف، الجهل، الفتن...) والماديـة (الاقتصـاد، العمران...) بعد هذا التحديد الدقيق لمعنى الاسـتبداد نجـده ينطلق ليحدد معالم القائمين عليه والراضخين له فيتساءل:

من هو المستبد؟ ومن هم أعوانه؟ ومن هم رعيته؟

استطاع الكواكبي أن يقدم وصفا دقيقا وحيويـا للمسـتبد، فرصد مشاعره وكيف ينظر إلى ذاته وإلى الآخرين (أعوانه ورعيته) إنه يسمعنا صوت أعماق المستبد، كما يطلعنا على

أعماق أعوانه ورعيته، فيقدم لنا تحليلا نفسيا للمستبد وأعوانه في زمن لم يكن معروفا فيه مثل هذا التحليل، إنـه يسـتخدم مقدرته التخييلية ليرصد لنا إحساس المستبد لحظـة جلوسـه على العرش حين يضع التاج على رأسه، إذ ينتابه إحسـاس بتحولـه من إنسان إلى إله، لكنه في الوقت نفسه، يحس أنه لم ينل تلك المكانة إلا بفضل أعوانه الـذين نسـمع صـوت أعماقهم (لسان حالهم) يبين حقيقته، فيخاطبونه متخيلين أنـه أمامهم "**ما العرش وما التاج وما الصولجان؟ مـا هـذه إلا أوهام في أوهام، هل يجعلك هذا الريش في رأسك طاووسا وأنت غراب، أم تظن الأحجار البراقة فـي تاجـك نجومـا ورأسك سماء، أم تتوهم أن زينة صدرك ومنكبيك أخرجتـك من كونك قطعة طين من هذه الأرض؟ وا ما مكّنك في هذا المقام أو سلّطك على رقاب الأنـام إلا شـعوذتنا وسـحرنا وامتهاننا لديننا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وإخواننا! فـانظر أيها الصغير المكبر الحقير الموقّر كيف تعيش معنا!"(٤).**

جسد لنا الكواكبي صوت أعماق أعـوان المسـتبد عبـر مستويين من الوعي: الأول وعي لحقيقة الآخـر (المسـتبد) الذي يستطيع إبراز حقيقته البشعة، وبـذلك يفضـح زيفـه

والأوهام التي يخدع نفسه بها والآخرين، فيبدو لهـم أشـبه بـ(طاووس، يصل رأسه إلـى السـماء، فيظنـه مرصـعا بالنجوم...) مع أنه في الحقيقة غراب، لا يساوي أكثر مـن قطعة طين صغيرة، وحقيرة!! يلفت نظرنا استخدام الكواكبي الصفات المتناقضة التي تبرز حقيقة المسـتبد وتـدل علـى الافتعال والمبالغة الجوفاء (الصغير المكبر، الحقير الموقّر) .

أما المستوى الثاني: فهو وعي الذات (المساندة للمسـتبد) التي هي ذات مزيفة تقوم على السـحر والشـعوذة والقـيم الفاسدة، ورغم ذلك لا يمكن للمستبد أن يستغني عنهم، وربما من أجل شعوذتهم وقيمهم الفاسدة كانوا أعوانا للمستبد، فأمنوا عرشه وحافظوا عليه بما يملكون من صفات دنيئة!

من الملاحظ أن الكواكبي قد استخدم اللغة الساخرة التـي تعتمد التناقض مما أضفى الحيوية والعمق عليهـا، الأمـر الذي يدهش له المتلقي إذ يطلع على تفاصيل عالم غـامض بكل بشاعته، التي تنغص حياتنا، دون أن نـدرك معالمهـا، فأتى الكواكبي لا ليعرفنا بها فقط، وإنما لينقل لنا ما يجـول

في أعماقها من أفكار بشعة مدمرة!! و قد أدى كل هذا إلـى جعل الأفكار أكثر فاعلية وتأثيرا باعتقادنا.

لم يكتفِ الكواكبي بأن ينقل لنا ما يجول في أعماق أعوان المستبد، بل قدم لنا أعماق المستبد حين ينظر إلـى رعيتـه فتراوده أفكار ومشاعر يحاول الكـواكبي أن يتغلغـل فـي أشواكها الخفية، ليرصدها بطريقة مدهشة، فها هو ذا مـثلا يبين لنا كيف تتجلى الرعية في عين المستبد علـى أنـواع **"يرى منهم الطائشين المهللين المسبحين بحمـده، ومـنهم المسحورين المبهوتين كأنهم أموات، ولكن يتجلى في فكره أن خلال الساكتين بعض أفراد عقـلاء أمجـاد يخاطبونـه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شؤونا عمومية وكَّلنـاك فـي قضائها على ما نريد ونبغي، لا على ما تريد فتبغـي، فـإن وفيت حق الوكالة حق لك الاحتـرام، وإن مكـرت مكرنـا، وحاقت بك العاقبة...**

عندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلا: الأعوان الأعـوان، الحملة السدنة أسلمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغـاد وأحارب بهم العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يـدوم لـي ملك كيفما أكون، بل أبقى أسيرا للعدل معرضـا للمناقشـة

منغّصا في نعيم الملك، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطانا جبارا متفردا قهارا"(٥).

يقدم لنا الكواكبي العالم الداخلي للمستبد الذي يرى رعيته على أنواع، منهم رعية طائشة خانعة لذلك لا تثير لديـه أي اهتمام، ومنهم رعية عاقلة هي التي تهمه، إذ تملـك القـدرة على محاسبته لامتلاكها الوعي والمعرفة، فيحاول أن يستجلي دخيلتها ليعرف ما تخفي من أسرار، ومن أجل ذلك يلجأ إلى قراءة لغة العيون التي هي لغة الأعماق بكل ما فيهـا مـن صدق وصراحة وجرأة، فيعرف الحقيقة عندئذ يخاف المستبد ويحس بالضيق، إذ ينتابه شعور بأنه مهدد من قبـل هـؤلاء العقلاء، مما يدفعه إلى الاستنجاد بأعوانه، وقد تم تجسيد ذلك عبر أسلوب درامي، نسمع علو نبرته، إذ يصـرخ المسـتبد مستنجدا (الأعوان الأعوان) فنكتشف عبـر هـذا الحـوار الداخلي كيف يقاوم هؤلاء العقـلاء بجـيش مـن الأوغـاد (الأعوان) كي لا ينغصوا عليه حكمه المطلق ويهددوا ملكـه بالزوال!

تتجلى روعة الكواكبي في قدرته على تشخيص المسـتبد، ليس فقط في تصرفاته الخارجية، وإنما في تقـديم مكنوناتـه

الداخلية، فاستطعنا أن نسمع صوت أعماقه عبر هذا الحـوار الداخلي! كما تجلت قدرته أيضا في تصوير الجانب الآخـر نقيض المستبد، أي الشعب المقاوم للاستبداد، فتنشأ لدينا مـا يصح أن نسميه دراما الاستبداد، إذ تتضح لنا معالم شخصية المستبد ورؤاه، عبر المواجهة، كما تتضح لنا معالم شخصية الإنسان المقاوم للاستبداد!

بالإضافة إلى الأسلوب الدرامي نجده يلجأ إلى الأسـلوب التصويري في تجسيد تصرفات المستبد وتعريفه، فهو يتحكم في شؤون الناس فارضا إرادته "**ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من النـاس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته"(٦).**

إننا أمام صورة لاذعة مستفزة، تجسد بدقة بشاعة المستبد واحتقاره لرعيته، وهي تفضح في الوقت ذاته مـدى القهـر والذل الذي تتعرض له الرعية (كعب المستبد الـذي يـدوس الأرض به يسد أفواه الملايين) فيوجه للرعية لطمة عار تغلق فمهم، وتمنعهم من المطالبة بحقهم، فأي ذل تعانيه الملايـين حين يوجه إليها كعب مستبد واحد!

إن من الملاحظ أن هذه اللغة التصويرية لم تسـهم فـي تمييع الفكرة أو ضبابيتها، بـل زادتهـا غنـى ووضـوحا واستفزازا، فاستطاعت أن تعمق بشاعة الاسـتبداد وقهـره للوجدان والعقل.

كما يمكننا أن نلاحظ أن هذه اللغة التصويرية كانت سمة أساسية في خطابه الفكري، يستخدمها ليزداد المعنـى تألقـا، مما يهب كتابه نبرة خاصة بـه، تستعصـي علـى الاتهـام بالتقليد، الذي حاولت (سيلفيا حاييم) أن تتهمه به.

وقد وجدناه يلجأ إلى استخدام التشبيه الذي يبرز انعكاس الاستبداد على الرعية وخطورته وذلك فـي تحويلهـا عـن طبيعتها الإنسانية **"المستبد يود أن تكون رعيته كـالغنم درا وطاعة، وكالكلاب تذللا وتملقا".**

هنا نلاحظ أن الكواكبي قد اختار حيوانات وضيعة تجسد معادلا فنيا للحالة البائسة والذليلة التي كانت عليها الرعيـة، أما حين أراد أن يجسد الحالة التي يأمـل أن تكـون عليهـا الرعية (حالة المقاومة) فنجده يختار حيوانات عرفت بنبلهـا، ومازالت تحتل مكانة سامية في المخيـال الشـعبي كالخيـل والصقور **(على الرعية أن تكون كالخيل إن خُدمت خَـدمت،**

وإن ضربت شرست، وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله، خلافا للكلاب التي لا فرق عندها أطعمت أم حرمت حتى من العظام).

وقد بين لنا كيفية الخلاص من الاستبداد، موضحا كيف يكون سلوك الرعية فاعلا، وقد كان معنيا بتقديم فكرته هذه عبر صورة مدهشة "**فالرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمن من بطشه، فإن شمخ هزت الزمام وإن صال ربطته**".

إننا أمام صورة بصرية مدهشة شكلت لنا مشهدا للعلاقة الحساسة بين الحاكم والمحكوم، إذ ينطلق المستبد كالوحش يؤذي رعيته، عندئذ يتوجب على الرعية أن تستميت لترد وحشيته عنها، فإذا لم تقم بهذه المهمة، اتسع أذى المستبد ودماره، ولن تستطيع التخلص من شروره.

يلفت نظرنا تجسيد جدلية العلاقة بين المستبد والرعية في هذه الصورة، التي تتبع أدق تحركات المستبد وصفاته (شمخ، صال) ورد فعل الرعية، فهي تلوح مهددة بالزمام كلما تجاوز المستبد الحدود، فإذا تمادى أمسكت به وأعادته إلى صوابه، لذلك استخدم أفعالا تدل على القوة والفاعلية التي

يجب على الرعية التمسك بها (تقيد، تستميت، هزت، ربطت) وقد اجتمع في صيغ هذه الأفعال الماضي والحاضـر، ممـا يوحي لنا أن مقاومة المستبد يجب ألا تتوقف، بل يتوجب أن تكون جهدا مستمرا من الماضي إلى الحاضر، وهـو يؤكـد بصورة غير مباشرة قدرة الرعية علـى مواجهـة المسـتبد وردعه عن غيه، بما تملكه من أدوات التهديد والفعل.

يأخذ الكواكبي بيد الرعية ويرشدها على سـبل مقاومـة المستبد، فيبين لها أن القانون خير زمام تمتلكـه إذ بفضـله تضبط تصرفات الحاكم، فإن انحرف عنه عاقبته، إنه يكشف، عبر هذه الصورة، للرعية مدى ما تمتلكه من قوة، خاصـة حين تستطيع مواجهة المستبد بسلطة القانون، فيصـبح فـي قبضتها، تستطيع محاسبته، أما حين تفتقد القانون فإنها تصبح أسيرة في قبضة المستبد.

ونجده لا يكتفي بالتصوير ليعبر عن أفكاره، بـل نجـده يمزج الحوار الدرامي المنطقي بالتخييل، كـي يسـتطيع أن يبرز لنا جانبا آخر من علاقة المستبد برعيتـه "**فـإذا سـأل سائل: لماذا يبتلي ا عباده بالمسـتبدين؟ فـأبلغ جـواب مسكت هو: إن ا عادل مطلق لا يظلم أحـدا، فـلا يـولي**

المستبد إلا على المستبدين! ولو نظر سائل نظـرة الحكـيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبدا في نفسه، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم حتى ربه الذي خلقه تابعين لرأيـه وأمـره، فالمسـتبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار وهذا صريح فـي الأثر: كما تكونوا (تكونون) يولّى عليكم"(٧).

تشيع، هنا، لغة المنطق رغم تخيل الحوار (الذي لا تتضح فيه شخصيات المتحاورين، وإنما يستخدم الكـواكبي صـيغة توحي بالعمومية: سائل، جواب مسكت) وقد أكّد عبر هـذا الحوار ما كان قد ذكره في كتابه "أم القرى" لكنا نلاحظ أنه، في "طبائع الاستبداد" قد اتسع في ربط مظاهر الاستبداد لدى الحاكم بصفات استبدادية نلمسها لدى الرعية، فيسقط استبداد الحاكم على الرعية التي تصبح صورة عنه في تعاملها مـع بعضها بعضا! إذ تفتقد حس العدل فيما بينها، كمـا افتقدتـه بينها وبين السلطة المستبدة، وبذلك تشمل ظلمـة الاسـتبداد الحياة العامة والحياة الشخصية!

الاستبداد والمجد:

يلجأ الكواكبي من أجل توصيل فكرتـه إلـى الاشـتقاق اللغوي، فيبتدع مصطلحا نقيضا للمجد وهو "**التمجـد**" ليتضح مدى الزيف والافتعال الذي أصاب هذه القيمة العليا في الحياة على يد الاستبداد، كما يستخدم لفظة المتمجد باعتبارها نقيضا للماجد، وبذلك يلجأ الكواكبي إلى صيغة صرفية توحي بمدى الافتعال والتشويه الذي أصاب الصيغة الأصلية أي تـوحي بمفارقتها المعنى الأصلي!!

إن المجد قيمة محببة للنفوس، لهذا نجدها تسـعى إليهـا، وهذه القيمة ميسرة في عهد العدل لكل إنسان حسب استعداده وهمته، وينحصر تحصيل المجد في زمن الاستبداد بمقاومـة الظلم، لأن القضاء على الاستبداد يفتح باب الحرية التي هي أساس الإبداع في العمل والتطـور فـي العلـم، والسـلوك الأخلاقي القويم.

أما التمجد فيوحي اشتقاقه بالتظاهر والافتعال، لهذا يجعله صفة خاصة بالإدارة المستبدة، حيث يحيط بها أعوان يلقبون بألقاب فخمة، ويحيطون أنفسهم بمظاهر الزيـف وأفعـال لا طائل منها ولا هدف سوى النفـاق وتبجيـل أولـي الأمـر المستبدين.

يقبس المتمجد جذوة نار من كبريـاء المسـتبد ليحـرق بجحيمها شرف المساواة الإنسانية، فيستشري وباء الاستبداد، فاتكا بكل القيم، فيحصد إنسانية الإنسان!!

إن المتمجدين مزيفو القيم، هم سماسرة المستبد وأذيالـه، يستخدمهم لتغرير الأمة باسم خدمة الدين، أو حب الوطن أو توسيع المملكة أو تحصيل منافع عامة أو الاستقلال، ويوضح الكواكبي أن هذه كلها أوهام تستخدم من أجل تهييج الأمـة، لأنه **ما الفرق على أمة مأسورة لزيد أن يأسـرها عمـرو؟ مثلها مثل الدابة التي لا يرحمها الراكب سواء أكان غاصبا أم مالكا(٨).**

وهكذا يصبح الاستبداد عدوا لكل القيم النبيلة في الحيـاة، يدمر الإنسان ويزيف إنسانيته بل ينهيها بتعبير أدق! وبهذا لا يبدو لنا الاستبداد متجسدا في شخص واحد هو الحاكم، وإنما يبدو لنا أن هناك مجموعة من الأعوان تحصنّه وتحميه بكل ما تملك من قوة، مما يجعلها على شاكلة المستبد في أخلاقـه وفي تصرفاته! لذلك أحاطها بدلالات سلبية، تنـزع معالمـه الإنسانية، وتجسده عبر صور منفّرة، لـذلك كـان الإنسـان

المتمجد أو من يقبل ذل الاستبداد (جذوة نار من جهنم، دابة، اختار العيش في رق الأسر...) .

الاستبداد والأخلاق:

لعل أبرز نقطة يظهر فيها دمار الإنسان، بفعل الاستبداد، دمار أخلاقه وتشوه إنسانيته، إذ يترك الملاذات الروحية، التي تشكل إنسانية الإنسان وأساس وجوده الحضاري، ويكتفي بالملاذات الجسدية، لذلك صور لنا حال الناس في ظل الاستبداد تصويرا مزريا مقززا، إذ جعلوا بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت وإلا فمزابل للنبات، إلى درجة أصبحت أجسادهم أنابيب بين المطبخ والكنيف (دورة المياه) أو جعلها معامل أعدت لتجهيز الأخبثين...

يبدو لنا واضحا من هذه اللهجة القاسية ضيق الكواكبي وقرفه من الحياة غير الإنسانية التي يعيشها الناس في ظل الاستبداد الأمر الذي دفعه إلى هذا التصوير المزري، فقد تحول الإنسان، في ظل الاستبداد، إلى مقبرة أو مزبلة أو أحط من ذلك، إذ تختزل حياته إلى أنبوب يوصل الفضلات البشرية إلى مستقرها، وحين يرتقي وضعه يتحول إلى معمل لإنتاج هذه الفضلات !!

لعله عبر هذا التصوير الذي يجسد تحول الإنســان إلــى أحط ما فيه، يستفز أبناء أمته لاسترجاع إنسانيتهم المهدورة، فيقضون على المستبد الذي شوه روحهم فشوه بالتالي حياتهم وضيع ملامح إنسانيتهم! ولم يبقِ سوى حاجاتهم الجسدية!!

بدا لنا الكواكبي معنيا بتسليط الضوء علــى الأخــلاق أو بالأحرى الصفات الرديئة، التــي نجــدها ملازمــة أســير الاستبداد، إنه لا ضمير لــه لا يعرف النظام في حياتــه ولا الثبات في أخلاقه، فهو تارة شجاع (إن أصبح غنيا) وتــارة خسيس (إن أمسى فقيرا) يألف الرياء والنفاق، يعين الأشرار ويتستّر عليهم.

يتغلغل الكواكبي إلى أعماق أنصار الاستبداد الذين يبذلون جهدهم في تلمس حسنات لــه، فنجده يحاورهم بلغة المنطق كي يقضي على الأوهام التي تسربلهم ويبرز الحقائق التــي يأبون النظر إليها "**يقولون مثلا: الاســتبداد يلــين الطبــاع ويلطّفها، والحق أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة، ويقولون الاستبداد يعلّم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير، والحق أن هــذا فيــه عــن خوف وجبانة لا عن اختيار وإذعان، ويقولون هــو يربــي**

النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحـق أنـه ليس هناك غير انكماش وتقهقر، ويقولون الاستبداد يقلـل الفسق والفجور والحق أنه عن فقر وعجـز لا عـن عفـة ودين، ويقولون هو يقال التعديات والجرائم، والحـق أنـه يمنع ظهورها ويخفيها فيقلّ تعديدها لا عددها"(٩).

اتبع الكواكبي أسلوب الحوار الهادئ، مع أولئـك الـذين يقلبون الحقائق والأخلاق، وهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وبذلك قدم آراءهم في حسنات الاستبداد، وحاول أن يفنـدها، ليفضح الأوهام التي يدعيها أنصار الاستبداد، ولكـي تبـدو آراؤه أكثر إقناعا نجده يستخدم لغة المنطق من أجل إظهـار الحقيقة التي تخفى على الكثيرين، وفضح الزيف الـذي قـد يخلب ببريقه أبصار الجاهلين، لكنه لن يستطيع الصمود أمام التحليل المنطقي، ورد الحجة الباهتة بحجة مقنعة.

وبذلك تتسع آفاق الكواكبي فيفسح المجال لسماع الـرأي المخالف لوجهة نظره، أي أولئك الذين يقفـون فـي صـف الاستبداد، يحاورهم ويبين أوهام مزاعمهم، وهكـذا يصـبح الحوار، لديه، لغة منطقية وأداة تنويريـة، نسـمع بفضـله وجهتي نظر، ولكن شتان بين رؤية متسرعة تجامل الحـاكم

وتدافع عنه، فتخفي نور الحق، وبين رؤية متعمقة يجسـدها الكواكبي الذي يفضح الزيف والكذب بأسلوب علمـي يقـدم المعرفة التي تسعى إلى رؤية الحقيقة، كل ذلك من أجـل أن يمنح الإنسان قوة في مقارعة المستبد وأعوانـه الـذين قـد نجدهم أخطر على الناس من المسـتبد، إذ يـدافعون عنـه، ويروجون أفكاره الزائفة.

الاستبداد والمال:

لم يكتفِ الكواكبي بدراسة أثر الاسـتبداد علـى أخـلاق الناس، بل نجده يوضح كيف ينعكس الفساد الأخلاقي، الـذي لحظناه آنفا، على البنية الاقتصادية للدولة، وهو لن ينطلـق من العموميات التي قد يتيه بها المرء، وإنما نجده يبدأ مـن الخاص ليصل إلى العام، أي من نظرة أسير الاستبداد للمال وطريقة تعامله معه، إذ يشتد حرصه عليه، ويسهل تحصـيل الثروة بطرق غير مشروعة، كالسـرقة مـن بيـت المـال وبالتعدي على الحقوق العامة واغتصاب أموال الضعفاء، وقد بين لنا الكواكبي أن ذلك كله يحصل حين يترك الإنسان دينه ووجدانه وحياءه، وينحطّ في أخلاقه، سعيا منه ليتماثل مـع المستبد الأعظم أو أحد أعوانه وعماله، ويكفيـه وسـيلة أن

يتصل بباب أحدهم ويتقرب من أعتابه...وهذا التقرب أعظم أبواب الثروة في الشرق والغرب ويليه الاتّجار بالـدين، ثـم الملاهي، ثم الربا الفاحش...

إذاً في زمن الاستبداد يطغى الفساد الأخلاقي وتفتح أبواب الكسب غير المشروع بتشجيع من سلطة الاستبداد، ويبـرز دور قيادة الاستبداد في سلب أموال الرعية، أو جعلها لقمـة سائغة أمام اللصوص والمحتالين الـذين يسـاندون المسـتبد فينعمون برعايته .

يبرز الكواكبي الفساد المالي في دولة الاستبداد التي تقهر الضعيف فتزيده فقرا، وتقف إلى جانب الثري، الذي يكـون غالبا متحالفا معها، فتكافئه بأن تزيـده ثـراء، لهـذا يعلـن الكواكبي انتماءه إلى هؤلاء الفقراء، فيقـف إلـى جـانبهم، يساندهم بكل ما يملك من وعي ومعرفة وإرادة في مقاومـة الاستبداد، إلى درجة يكتب لهم شكواهم ضد الظـالمين مـن الولاة، ليرفعوها إلى السلطة العليا، فنال بـذلك لقـب أبـي الضعفاء.

الاستبداد والتربية:

يؤكد الكواكبي أن الاستبداد يقضي على العملية التربوية، لذلك يعد التربية والاستبداد عاملين متعاكسين فـي النتـائج، فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته.

وقد لاحظنا، سابقا، كيف يدمر الاستبداد أخلاق الإنسـان فيستبيح الكذب والخداع والنفاق والتـذلل، وبـذلك تنحـرف التربية عن دورها في غرس الخلق القويم، وبناء إنسان فاعل في الحياة، ليتحول، في ظلّ الاستبداد، إلى عبد لا يملك نفسه ولا أولاده، فهو يربي أنعاما للمستبدين يأتمرون بأمرهم.

إذاً التربية الصحيحة لن تكون في ظلّ الاستبداد، إذ يشيع الخوف من القوة القاهرة، مما يستلزم "**انخـلاع القلـوب لا تزكية النفوس**" وهذا يناقض أسس التربية الحديثة التي أجمع عليها علماء الاجتماع والتربية، ،أول أسس هـذه التربيـة: **الابتعاد عن الترهيب واعتماد الإقنـاع، وأن التعلـيم مـع الحرية بين المعلم والمتعلم أفضل من التعليم مـع الوقـار، وأن يكون التعلم رغبة في الكمـال لا طمعـا بالمكافـأة أو منافسة الأقران...**

لابد أن يدهش المرء لهذه النظرة التربوية الثاقبـة التـي تلتقي مع أهم الإنجازات الحديثة لعلم التربية، التـي تجعـل

الحرية والمنطق أساس تلقي المعرفة، وترفض الأسلوب التقليدي في التعليم الذي يعتمد الضرب والترهيب.

إن الكواكبي يريد إعادة بناء الإنسان، الذي شوهه الاستبداد، على أسس قويمة لهذا يدلّه على الطريق الصحيح الذي يحقق له إنسانيته المفقودة، فيشجعه على طلب العلم من أجل رفعته، لا من أجل المال أو إحساس التفوق على الآخرين، بمعنى أن يتحول العلم غاية، يستطيع بفضله الارتقاء بإنسانيته، لا وسيلة لجمع المال، أو الغرور والإحساس بالتفوق على الأصدقاء.

يلفت نظرنا هذا الوعي لأهمية نبذ الأساليب التربوية التي نشأ عليها، حتى إن المرء يكاد يحس أن الكواكبي قد اطلع على نظريات التربية التي نراها منتشرة اليوم والتي تعتمد اللعب بوصفه أفضل طريقة لتعليم الأطفال.

إنه في الممارسة التربوية يبدأ من الطفل الذي هو رجل المستقبل، والذي يعول عليه أي نهوض حقيقي، لذلك نجده يطالب بتربية العقل على التمييز والتفهم والإقناع، ثم ضرورة أن يقدم له القدوة الصالحة ليتمثّلها في حياته، وأن الطفل بحاجة إلى التعزيز المعنوي، وذلك يكون بتقوية همته

وعزيمته، وينتبه إلى ناحية هامة في العملية التربوية وهـي التدريب على الإتقان، وأن يربى الإنسـان علـى التوسـط والاعتدال بعيدا عن التعصب أو الانفلات.

وقد أكد أن تربية العقل يجب أن تكون مصحوبة بتربيـة الجسم والنفس، أما كيف تربى النفس لدى الكواكبي، فتكـون الخطوة الأولى في مجال العناية بروحه، وذلك بغرس الإيمان في نفسه، لمعرفة الخالق والإحسـاس بمراقبتـه والخـوف منه(١٠) عندئذ يتمكن المربون من تنمية الضـمير الـديني داخل الإنسان، فتغتني روحه، وتصلح حياته، ممـا يـنعكس إيجابيا على مجتمعه.

إذاً من الطبيعي ألا تتم أية نهضة تربويـة، كمـا يـرى الكواكبي، إلا بإزالة الاستبداد الذي يضـغط علـى العقـول والأرواح، ويمنعها من التفكيـر والإحسـاس، كمـا يمنـع الشخصية من النضج والتفتح، فتفتقد الأجيال الشـابة القـدوة التي تسعى لمحاكاتها والسير على طريقها، خاصة في مرحلة التكون، وقبل أن تصل هذه الأجيال مرحلة النضج.

الاستبداد والدين:

يشوه الاستبداد الدين، كما يشوه الأخلاق والتربية، فتصبح العبادات الدينية مجرد عادات وطقوس لا تفيد فـي تطهيـر النفوس، لهذا لن نستغرب، على حد قول الكواكبي، من أسير الاستبداد **الرياء مع ربه ومع أمه وأبيه ومع قومه وجنسـه وحتى مع نفسه،** فنحس أنه يعاني خلخلة في القـيم الدينيـة والأخلاقية، إذ يضيع صراطه المستقيم، ويعيش الانحـراف في مناحي حياته!

ويوضح الكواكبي أن المستبد حين يتخـذ لنفسـه صـفة القدسية فإنه يشارك بها ا عز وجل، فيلتبس علـى العـوام الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بـالقهر، فيختلط الأمر في مضايق أذهان هؤلاء العوام لتشابههما فـي استحقاق مزيد من التعظيم، والرفعة عـن السـؤال وعـدم المؤاخذة على الأفعال، لذلك لا يحق لهـم مراقبـة المسـتبد لانتفاء النسبة بين عظمته ودناءتهم...فيعظّمـون الجبـابرة تعظيمهم ، بل أكثر لأن ا حليم كريم عذابه بعيد غائـب، لهذا يستنتج الكواكبي أن هؤلاء العوام يؤمنون بالمحسـوس المشاهد، حتى يمكن أن يقال فيهم لولا رجاؤهم با وخوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا لما صلّوا ولا صـاموا، ولـولا

أملهم العاجل لما رجحوا قراءة الدلائل والأوراد على قـراءة القرآن واستيعاب حكمته.

ينهار الإيمان با ويتشوه في ظل الاستبداد إلى درجة تختلط في أذهان العامة قدسية الإله وقدسية المستبد، فتنتفـي الصـفة البشرية عنه، وبما أن عذاب المستبد قريب وعذاب ا بعيد نجد العوام يؤرقهم الخوف من المستبد فينسون ا تعـالى، عندئـذ تنهار قيم الإيمان الحقيقي الذي يعتمد علـى الغيـب، ويصـبح الإيمان بالمحسوس مسيطرا على عقول العوام، ممـا يجعلهـم يرجحون اليمين بالأولياء المقربين على اليمين بـا (١٠) كمـا يرجحون قراءة الأوراد على كتاب ا المنـزل!

إن تعظيم المستبد من قبل العامة، ونسيان أن العظمـة وحده إحدى الأفكار الأساسية التي أرقت الكـواكبي، لـذلك وجدناه يؤلف كتابا في هذا المجال يدعى "العظمة " ستصل إليه يد المستبد، بعد أن وصلت إلى صاحبه وقتلته!!

يرى الكواكبي أن العلة الأساسية في تشوه الدين تكمن في هجر المسلمون أصوله (القرآن وسنة رسول ا ص) واتبعوا سلطة المستبدين الذين شجعوا البدع التي تشوه حقيقة الـدين

والإيمان، وتؤسس للرضوخ والاستعباد، فيصبح الـدين آلـة لأهوائهم السياسية ودعامة لسلطانهم.

وقد أبرز الكواكبي دور المستبدين في تشويه الدين وجعله وسيلة لتفريق كلمة الأمة حين اتخذوا بطانة من خدمة الـدين يعينونهم على ظلم الناس باسم الدين، كمـا يعينـونهم علـى تمزيق الأمة إلى مذاهب وشيع متفاوتة تقاوم بعضها بعضـا، فيصفو الجو للمستبد.

أفلح الاستبداد ورجاله (الذين يدعون أنفسهم برجال الدين) في تضييع مزايا الدين، فحيروا أهلـه بـالتفريع والتوسـيع والتشديد والتشويش، مما جعله دينا حرجا يتوهم الناس فيه أن كل ما دونه المتفنون (الفقهاء) بين دفتي كتاب ينسـب إلـى الإسلام، وبهذا التشدد بات العوام يلومـون أنفسـهم علـى تقصيرهم المطلق، فأهملوا مراقبة أنفسهم ومراقبة حكـامهم، وأن هذا الإهمال للمراقبة هو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو أحد أسس الإيمان في الإسلام، وبهـذا ظهر حكم الحديث "لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكـر أو ليستعملن ا   عليكم شراركم فليسومونكم سوء العذاب" .

ويبدو لنا أن الناس بتركهم هذا الأمـر الإلهـي سـمحوا للمستبد أن يستعبدهم، ومن الملاحظ أن هذا الأمر قد تـلازم في القرآن الكريم بأحد أعمدة الدين الإسلامي وأهم أركانـه: الصلاة التي تعني أن يأمر المسلم بالمعروف وينهـى عـن المنكر بالإضافة إلى معنى الصلة بين المؤمن وربـه، لهـذا جاءت الدعوة إليها في القرآن الكريم مصحوبة بالدعوة إلـى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك يبين الكواكبي أن التشدد في الدين يؤدي إلى اختلال حياة الفرد وحياة الأمة، ويفسح المجال لتسلط المستبد علـى رقاب الناس الذين أرهقتهم أوامر المستبد، لا يجدون وسـيلة للاستمرار في العيش إلا بالتخفف من أوامر الدين ونواهيـه، التي أرهقهم بها الفقهاء بعيدا عن روح الإسـلام السـمحة، وبذلك يقضي المستبد وأعوانه على كل ما يجسده الدين مـن قيم روحية وأخلاقية تصلح حياة الناس.

وقد لفت الكواكبي الأنظار إلى مسؤولية الفقهاء المنافقين عـن تشوه الدين حين قدموا فهما ضيقا للإسلام، تجلى ذلك حين عبثـوا بدلالات اللغة، فشوهوا الحديث الشريف، وقدموا فهما ضيقا لـه، وهذا أبلغ تشويه قاله مشرع سياسي من الأولين والآخرين "**كلكـم**

راع وكلكم مسؤول عن رعيته" فحرفوا المعنى عن ظاهره وعموميته، وجعلوا المسلم راعيا مسؤولا عن عائلته فقط، مع أنه في عهد الراشدين أسست أفضل حكومة على هذه القاعدة الشرعية التي تحمل المسلم مسؤولية المجتمع والأسرة معا أي مسؤولية عامة وخاصة، وكذلك حرف الفقهاء الآية "**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**"(سورة التوبة، آية رقم٧١) فحولوا الولاية إلى أمور حياتية خاصة دون تسليط الضوء على الولاية العامة ومسؤولية جميع الأفراد عن الحكم.

وهكذا "**غيروا اللغة وبدلوا الدين، وطمسوا على العقول حتى جعلوا الناس ينسون لذة الاستقلال وعزة الحرية، بل جعلوهم لا يعقلون كيف تحكم أمة نفسها بنفسها دون سلطان قاهر."(١٢)**

باتت وظيفة هؤلاء العلماء العبث بالمقدس (اللغة والدين ونصوصه المقدسة) مع أنهم يدعون حمايته، لهذا استطاعوا تشويه العقول والنفوس، فألغيت معاني الكرامة والحرية من حياة الناس، وصار الحاكم المستبد، بسبب إلغاء العقل، جزءا من وجودهم يألفونه مستكينين له، دون أن يراودهم أي إحساس بقهره!! فبذلك تحول العلماء من وظيفة التنوير التي

يأمرهم بها دينهم إلى وظيفة التجهيـل التـي يـأمرهم بهـا سلطانهم ونفوسهم الضعيفة !!

لذلك أطلق الكواكبي على علماء الدين (علماء الاستبداد) فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، وليس أي كلم، إنه كلام ا ، إرضاء للمستبد وحماية له، فهم مثلا يحرفون الآية الكريمة "**أطيعـوا ا وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**"(سورة النساء، آيـة رقـم ٥٩) فيغفلون قيد **منكم** أي من المؤمنين، ليؤسسوا لطاعـة المسـتبد، ويوحوا بإيمانه، كي لا يتطرق إلى أذهان المسلمين بأن الحكـام الظالمين (الذين لا يحكمون بأمر ا) لا يتوجب على المـؤمنين إطاعتهم، لأنهم يخالفون الدين الإسلامي السمح، فهم غرباء عنه لظلمهم واستبدادهم، لذلك لا نستطيع أن نعد أمثال هؤلاء الفقهاء حماة للدين وإنما حماة للمستبد، يعززون عظمتـه، وينسـون أن العظمة وحده.

نظرا لأهمية هذه الآية واستغلال رجال الاسـتبداد لهـا نلاحظ أن الكواكبي (في كتابه "طبـائع الاسـتبداد") كـرر الوقوف عندها كما توقف عندها في كتابه "أم القـرى" فقـد رآها الحاكم المستبد درعا يحمي تصرفاته، بل يمكن أن يقنع العامة بها، إذ تطلب منهم طاعة أولي الأمر! وإن كنـا قـد

لاحظنا أن الكواكبي في هذا الكتاب قد أضاف إلى تفسيراتها أبعادا جديدة، في حين وجدناه في كتاب "أم القـرى" يتوقـف عند صيغة الجمع التي وردت فيها مفردة **أولي الأمر** أي أن الطاعة تكون واجبة لمجموعة من الأشـخاص لا لشـخص مستبد واحد، وبذلك يزيد مفهـوم الشـورى فـي الإسـلام وضوحا، معتمدا أساسا لا جدال فيه: هو القـرآن الكـريم، ولأهمية هذه الآية وكثرة ترددها على ألسنة الناس والحكـام سنجده في مقالاته الصحفية يتوقف عنـدها أيضـا ويـورد تفاسير الفقهاء المسلمين لها، ليبـين زيـف تفاسـير فقهـاء السلطان، وبذلك نجده يعود إلى ما يعزز الاستبداد في تراثنا الديني ليبين براءته منه، ويبين انحراف السـلطة المسـتبدة ورجالها في تفسيراتهم تلك.

الدين وحقوق الإنسان:

أكد الكواكبي أن القهر والاستبداد لا يرضى بهما الإسلام، وأن الحرية هي روح الدين، لهذا رفض الإسـلام العبوديـة لغير ا تعالى، وهو يتوقف عند العهد الراشدي، حيث كـان **"راعي الخرفان حرا لا يعرف شنآنا يخاطب أمير المـؤمنين**

بيا عمر ويا عثمان، فصرنا ربما نقتل الطفل في حجر أمـه ونلزمها السكوت فتسكت..."(١٣).

يحيي الكواكبي في أذهان الناس قيمـا إسـلامية غيبهـا الاستبداد، ويبين في العصر الراشدي (أي في ذلك الذي تـم فيه تطبيق روح الإسلام) كيف يتعامل الإنسان البسـيط مـع الحاكم بعيدا عن لغة التفخيم والتقـديس، إذ يتسـم تعاملـه بالحرية والإحساس بالمساواة، فينتزع تلك الهالة التي يحـيط الحاكم نفسه بها، أما اليوم وقد بعدت الهـوة بـين الحـاكم والمحكوم، فإن هذا المحكوم يتعرض لأشد أنواع القهر ويبقى صامتا، فقد نُزعت إنسانيته منه التي تعني إحساسه بالحريـة والمساواة والكرامة، وأصبح عبدا لا يستطيع أن يقـول (لا) ولهذا كله بات يعيش غريبا عن روح الإسلام.

ومن أجل إحياء كرامة الإنسان يـذكرنا الكـواكبي بمبـدأ المساواة أحد أسس الإسلام الأساسية التي وردت فـي القـرآن دستور المسلمين "**إن أكرمكم عند ا أتقاكم**"(سورة الحجرات آيـة رقـم ١٣**)** ولكن مع الأسف بات الحكام والرعيـة يتجاهلونهـا، وينسون قول نبيه "**الناس سواسية كأسـنان المشـط لا فضـل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**" في حين طبقت هذه الدعوة في

عهد المسلمين الأوائل، فشاع بينهم العدل والإخاء والحض على **الإحسان والتحابب،** فنشأت خلافة **أصول حكومتها الشـورى الأرستقراطية أي شورى الحل والعقد في الأمـة بعقـولهم لا بسيوفهم."**

بالإضافة إلى هذه المقولات التي تعتمد أسـس التشـريع الإسلامي (القرآن الكريم والحديث الشريف) يورد الكـواكبي مقولات شعبية ذات دلالات دينية تشيع عـادة علـى ألسـنة البسطاء الذين يعانون أسر الاستبداد، فيسلون أنفسهم بالسعادة الأخروية بما تحتويه من نعيم مقيم، وينسون أن الدنيا عنوان الآخرة، فنسمعهم يقولون **("الدنيا سجن المـؤمن" "المـؤمن مصاب" "إذا أحب ا عبدا ابتلاه" "هذا شأن آخـر الزمـان" "حسب المرء لقيمات يقمن صلبه")** لـذلك يحـاول أن يقـد المقولات التي تضيع حقوقه الإنسانية وتعزز الاستبداد، كمـا تشوه حياته، فيطرد روح التخاذل التي عششت فـي نفـوس الناس لكثرة ترددهم أمثال هذه المقـولات التـي ينسـبونها للدين، فيذكّهم بأحاديث شريفة تناقض هذه المقولات الشـعبية المأثورة التي ألبسوها دلالات دينية، كقول النبي عليه السلام

"**إن ا يكره العبد البطال**" والحديث الذي يحمل معنـى "**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها**".

وهكذا يقارع الكواكبي حجة العوام (التي تشكلها الأقـوال المأثورة ذات الدلالة السلبية) بحجج لا ترد لما تحمله من قوة التأثير، وبذلك يقدم لهم البديل الديني (أقوال الرسـول عليـه الصلاة والسلام ذات الدلالة الإيجابية) فهو يهديهم إلى مـا هو خير لهم في حياتهم الدنيا والآخرة علـى لسـان مـن لا يستطيعون رفض أقواله، كل ذلك من أجل ترسـيخ أهميـة العمل في الأذهان ونبذ التواكل! ومن أجل إيقـاظ النفـوس وتنبيه العقول على الروح الحقيقية للدين الذي يجمـع بـين الإيمان والعمل.

إن هذه المثبطات من الأقوال المأثورة التي تأسـر حيـاة الإنسان تهون أمام "**ذلك السم القاتل الذي يحول الأذهان عن التماس معرفة سـبب الشـقاء فيرفـع المسـؤولية عـن المستبدين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر.**"**(١٤)**

ينبه الكواكبي المسلمين إلى فهمهـم المغلـوط للقضـاء والقدر، ويبين لهم مسؤوليتهم عن حالة الضعف والذل التـي يعيشونها، فقد أغفلوا البحث عن الأسباب وتعلقوا بكـل مـا

يسلب إرادتهم ويقتل حيويتهم من أفكار تنسب إلى الدين وهو منها براء، إذ هناك فرق بين أمور لهـا أسـباب واضـحة يستطيع الإنسان تغييرها بإرادته كحالة التخلف التي تعيشـها الأمة، وبين أمور قدرية (الموت، المرض ...) لا يد للإنسان فيها ولا يستطيع تبديلها فيتوجب عليه أن يتركهـا للإيمـان بالقضاء والقدر، وبذلك يزيل الغشاوة عـن أكثـر الأفكـار تدميرا لروح المسلم وفاعليته بأن يطرح بديلا يمت بصلة إلى الموروث الإسلامي ويؤكد عبـره ضـرورة نبـذ التواكـل والضعف.

إن السمة الأساسية لفكر الكواكبي انطلاقـه ممـا يشـك وجدان الناس، يلجأ إلى الحوار الفكري مع كل فكر مشـو أو مغلوط ليعود إلى الأصول التي تشكل ملاذا لنا مـن حالـة الضعف التي ترتكز على الأوهام التي لا علاقة لها بالـدين ومع ذلك تؤثر على أفكار عامة الناس وأفعالهم.

إذاً تضيع حقوق الإنسان حين تسيطر عليه أفكار التخاذل والضعف، التي ينسبها عادة إلـى القضـاء والقـدر، لـذلك يحاول الكواكبي أن يقدم فهما واعيا للـدين، مسـتندا علـى الأصول، فيستطيع أن يوظفه في مقاومة الظالمين، لأن أصل

الداء يكمن في الفهم المغلوط للدين، وقـد ضـيع المفهـوم الصحيح للدين الساسة والعلماء المنافقون، لهذا يرشد قومـه إلى عمل باستطاعة كل فرد أن يقوم به "**لا حرج فيه علمـا ولا عملا**" (مادام يكمن في أعماقه وجدان يميز الخيـر مـن الشر والمعروف من المنكر) وهذا العمل المقاوم: هو أن يتبع قول النبي صلوات ا عليه وسلامه "**من رأى منكم منكـرا فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**".

إنه لا يكتفي بإيراد القول المقدس الذي يشـكل وجـدانهم ويحرك ضمائرهم، وإنما نجده يحاول أن يوضح لهم دلالات هذا الحديث ليؤثر في عقولهم "**أنتم تعلمـون إجمـاع أئمـة مذاهبكم كلها على أن أنكر المنكرات بعد الكفر، هو الظلـم الذي فشا فيكم، ثم قتل النفس... وقد أوضـح العلمـاء أن تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به (الظالم) بغضا في ا ، بناء عليه من يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان، وما بعد الأضعف إلا العدم أي فقد الإيمان والعياذ با .**

بناء على ذلك فالدين يكلّفكم إن كنتم مسلمين، والحكمـة تلزمكم إن كنتم عاقلين أن تأمروا بالمعروف وتنهـوا عـن المنكر، لا أقل في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظـالمين والفاسقين، وأظنكم إذا تأملتم هذا الدواء السهل المقدور لكل إنسان منكم يكفي لإنقاذكم ممـا تشـكون، والقيـام بهـذا الواجب...ولو أن أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلـى ما أنتم عليه من الهوان، فهذا دينكم والدين ما يـدين بـه الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقين وعمـل، لا علـم وحفظ في الأذهان، أليس من قواعد دينكم فرض الكفايـة، وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير منتظر غيره؟"(١٥)

يعود الكواكبي بالدين إلى نقائه الأول، فيبرز كيف يكـون فاعلا في حياتنا، يحفّز الإنسان على التغيير، ويدفعـه إلـى بغض ظالميه، وهو لا يكتفي بتحريضهم، بل نجده يحـرض الناس ضد كل أولئك الذين يتجاوزن قاعدة الأمر بـالمعرف والنهي عن المنكر، وهو بهذا يهاجم الضعفاء العاجزين الذين لا يطيقون حتى أضعف الإيمان في مقاومة المستبد.

إذاً كي يستطيع المرء أن يدافع عن حقوقه الإنسانية عليه أن يجعل من الدين الإسلامي منهاج حياة وعمل ينقذ المسـلم

من تخلفه، عبر تقديم تفسير فاعل يتسم بالحيوية للتشريع الإسلامي، حتى إن فرض الكفاية يجعله قريبا من فرض العين! إذ من واجب المسلم أن يكون فاعلا في الحياة، وألا ينتظر من غيره العمل ليسقطه عن نفسه، فقد ضيع الإسلام مثل هذا التواني والضعف، إلى درجة وصل فيها الأمر بالمسلمين أنهم يواجهون أعداءهم بكلمات يائسة مستسلمة كقولهم أيام الأزمات "**حسبنا ا ونعم الوكيل**" مخالفين بذلك أمر ا تعالى **بأن يعدوا ما استطاعوا من قوة، لا ما استطاعوا من صلاة وصوم".**

إننا أمام قول جريء يواجه به كل أولئك المتخاذلين والمتواكلين الذين يدعون التدين مكتفين بالصلاة والصيام، إذ يقدم الكواكبي تفسيرا لآية قرآنية يقاوم به الفكر التقليدي المستسلم الذي يرى في تأدية الفروض تمام الدين، فيبين أن ا أمرنا أن نواجه أعداءنا (سواء في الداخل من المستبدين أم في الخارج من المعتدين) بكل ما نملك من قوة، ولاشك أن تصريحه بهذه الفكرة يعد تجاوزا للفكر التخاذلي الذي يجعل الفروض الدينية فروضا شخصية ويتناسى علاقتها بالمجتمع بل يتناسى مسؤولية الإنسان المسلم في مواجهة العدو الذي

هو أمر إلهي "**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**"(سورة الأنفال آية ٦٠**)** هذه الدعوة تجلو حقيقة إلهية يعروها التزوير من قبل المتواكلين، وتبين أن الأمر الإلهي في مواجهة الأعداء يكون بإعداد السلاح لا بإعداد الصلاة والصوم!

إن الكواكبي، هنا، يتجاوز الخطاب الديني التقليدي، إلـى خطاب ديني مقاوم، يسلط الضوء على (الجهـاد) الفريضـة المغيبة من قبل رجال الدين الذين هم آلة في يـد المسـتبد! ومثل هذا الخطاب الجريء لا يمكن أن يصدر إلا عن إنسان غيور على وضع المسلمين مهمـوم بنهضـتهم ومواجهـة أعدائهم، الذين يعرقلون نهضتهم، لذلك يلجأ إلى توضيح مـا أمرنا ا به من إعداد السلاح لمقاتلة الأعداء، ولـم يأمرنـا بقتالهم عن طريق الواجبات الدينية التي تصلح الشان الداخلي للإنسان لكنها لا يمكن أن تكون سلاحا فاتكا بالأعداء، ومثل هذه الواجبات قد لا تحتاج إلى تأكيد من قبل علماء المسلمين قدر احتياج التأكيد على ضرورة إعداد العدة لمواجهة العدو، باعتقادنا، وهو أمر نسيه غالبية علمـاء المسـلمين مكتفـين بالدعوة إلى الصلاة والصوم.

نلمح لدى الكواكبي رغبة في إحياء الهمة لدى المسلمين، وذلك لن يكون إلا عن طريق إحياء الدين أحد ركائز حياتهم الذي يؤسس وجدانهم، ويوجه سلوكهم، لـذلك يسـتعين بـه ويوظفه ليصبح عامل نهوض في حياتهم، ويساعدهم علـى الثورة ضد ظالميهم، وعلى هذا الأساس يرفض كل ما يسيء إلى الدين كمقولة **"الدين أفيون الشعوب"**وأن **"الدين والعقـل ضدان"** إذ يصح ذلك في الأديان الخرافية **"أما الأديان المبنية على العقل المحض كالإسلام...ولا أعني بالإسلام ما يـدين أكثر المسلمين الآن، إنما أريد بالإسلام ديـن القـرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر بتفصح زيد أو عمرو".(١٦)**

يجنّد الكواكبي نفسه للدفاع عن الوجه الآخر للدين، بعيدا عن الأوهام والخرافة، هذا الوجه الذي نسيه أغلب الناس، أي دين العقل والحرية، الذي يخاطب الدنيا قبل الآخـرة، لهـذا يعرفنا بأهمية هذا الوجه المشرق الذي **يحفـظ الفكـر مـن الوقوع في مصائد المحرفين، ويضبط النفس من الوقوع في الشطط، ويعد الدين أقوى مؤثر في تهذيب الأخلاق، وأكبـر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منشّط على الأعمال**

الخطيرة، وأجلّ مثبت على المبادئ الشريفة، ويكفي دليلا على رقي الشريعة الإسلامية أنها حصرت عبودية الإنسان في جهة شريفة واحدة هي (ا) فأعتقت عقل البشر عن توهم وجود قوة ما، في غير ا ، لذلك لن يخاف المسلم من أي ملك أو ساحر أو شيطان أو سلطان.

ينطلق الكواكبي بمفهوم الحرية إلى ذروته، حين يحرر العقل البشري من الخضوع لغير ا تعالى، لذلك يبدو المسلم الحقيقي جريئا لا يخاف أي سلطان، كما يريد أن يكون عقله حرا من قيود الوهم والسحر والخرافة!!

وعلى هذا الأساس يكون الدين خير مقياس لرقي الأمة أو انحطاطها، فإذا خرج الدين عن الفطرة والحكمة، ولم يعد دين نظام ونشاط، وترك الأخذ بالقرآن إلى البدع والتشدد والتشويش، أصبح مرضا وليس دينا.

نجد فهما واعيا لدى الكواكبي في تقديم حقوق الإنسان باعتبارها جزءا أساسيا من الدين الإسلامي، أي ذلك التفسير المتنور الذي يقوم على الجمع بين الدنيا والآخرة، فإذا كان معظم خطابه السابق قد اتجه إلى أمور الدنيا فلا يعني ذلك إهماله للآخرة، فقد بين أن الروح الإنسانية ترقى نحو الكمال

حين تحس أن لها وراء حياتها حياة أخرى، يترقى إليها عبر سلم العدل والرحمة وعمل الخير، وبذلك تكون حياة الإنسان في الدنيا معبرا إلى الحياة الأخرى، فإن عمل عملا صـالحا فيها ارتقى بدنياه وآخرته معا.

نلاحظ في حديثه عن القيم الإنسانية، التي تـدعى اليـوم بحقوق الإنسان، أنه لم يتوقف عند تعريفهـا بلغـة وصـفية جاهزة، وإنما حاول أن يحددها ضـمن سـياقاتها المعرفيـة والوجدانية، فيعزز وجودها، مبينا علاقتها الحميمة بمكوناتـه الدينية التي تشكّل صلب وجوده، والمدهش أن الكواكبي كان يقدم لنا أسس الحفاظ عليها التي هي أسس يقوم عليها وجوده الروحي، وهكذا تكون الحرية والمساواة والعـدل... الوجـه الحقيقي لتعاليم الدين الإسلامي.

الاستبداد والعلم:

أبرز لنا الكواكبي، كما لاحظنا سابقا، كيف حض الإسلام على رفض العبودية لغير ا تعالى، فأكد بذلك علـى حـق الإنسان في الحرية والعدالة والمساواة، ولاشك أن الإنسان لن يستطيع حماية حقوقه هذه إلا إذا كان متعلما، لـذلك يـرى الكواكبي أن الإسلام أول دين حض على العلم، وخير دليل

على ذلك أن أول كلمة أنزلت على رسوله، مشكلة أول أمـر إلهي في القرآن الكريم هي **(اقرأ)** (سـورة العلـق آيـة رقـم ١و٣)فشكلت بداية حياة جديدة، وقد جـاء أمـر ا تعـالى بالقراءة مكررا…، دليلا على كونه **أمـرا ملحـا ذا أهميـة قصوى، وقد أدى هذا الأمر لدى السلف الصالح إلى وجوب تعلم القراءة والكتابة، وبذلك صار العلم في الأمـة مباحـا للكل، غير مقتصر على رجال الدين أو الأشراف كما كان في الأمم السابقة، فانتشر العلم في سـائر الأمـم أخـذا عـن المسلمين(١٧).**

رفع الكواكبي العلم إلى أعلى مكانـة يمكـن أن يتخيلهـا إنسان، إذ جعله "**قبسة من نور ا** " وهذا النور يكشف الخير ويفضح الشر، ويولّد في النفوس حـرارة وفـي الـرؤوس شهامة، ولهذا يقال العلم نور والظلـم ظـلام، وقـد تأمـل الكواكبي حالة كل سلطة فلاحظ أنها تقوى وتضعف بنسـبة علم مرؤوسيها، لأن بين الاستبداد والعلم حربا دائمة، فهمـا ضدان متصارعان، فكل إرادة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم في الأمة، لتحصر الرعية في حالك الجهل، لأنه ما

انتشر نور العلم في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسـر، وساء مصير المستبدين سواء أكانوا سياسيين أم دينيين.

ما هي العلوم التي يخشاها المستبد؟

لا يخشى المستبد علوم اللغة ولا علوم الدين التي تتعلـق بيوم الآخرة أو بالعبادات، ولكن ترتعد فرائصه "مـن علـوم الحياة مثل الحكمة النظرية أو الفلسفة العقلية، وحقوق الأمـم وطبائع الاجتماع والسياسة المدنيـة، والتـاريخ المفصـل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبـر النفـوس وتوسع العقول، وتعرف الإنسان ما هي حقوقه، وكـم هـو مغبون فيهـا، وكيـف الطلـب، وكيـف النـوال، وكيـف الحفظ."(١٨)

يشرح لنا الكواكبي كيف يكون العلم سـلاحا يقـاوم بـه الاستبداد، وينبه إلى أمر كثيرا ما يغفل عنه المقاومون فـي زحمة حماستهم للنضال ضد الاستبداد، فهم ينسـون أنـه لا يكفي أن نتخلص من المستبد، بل علينـا أن نمهـد الأرض للبديل الذي يجب أن يحلّ محلّ المستبد، أي يدعو إلى وضع خطة مبنية على فهم نظري للقضايا التي تؤسـس لحيـاة لا استبداد فيها، من بينها معرفة الإنسان لحقوقه وواجباته مـن

جهة، ومن جهة أخرى معرفة حق الحاكم وواجباته وامتلاك الوعي المعرفي لمحاسبته.

وهناك أمر آخر يعزز وجود المستبد، يتوجب على المرء أن يقاومه بالعلم وهو الخوف المستحكم من المستبد وأدواته، فالإنسان يقترب من الكمال في نسبة ابتعاده عـن الخـوف، وهذا لن يكون إلا بمعرفة حقيقة ما يخاف "وهكذا كلمـا زاد علم أفراد الرعية بأن المستبد امرؤ عاجز مثلهم زال خوفهم منه وتقاضوه حقوقهم".

ونظرا لأهمية العلم في مقاومة الاسـتبداد أولا ثـم فـي مقاومة التخلف والضعف، نجد الكـواكبي يؤكـد ضـرورة إشاعة التعليم الإجباري فيكثر الأكفاء أصحاب المواهب الذين يتولون شؤون الأمة، فينتشر الوعي الذي يقاوم به الاستبداد، كذلك تنتشر الرؤية الموضوعية بين الناس فيعرفون حقيقـة المستبد الذي يستمد قوته من جهلهم.

دور العلماء في مقاومة الاستبداد:

يستخدم الكواكبي مصطلح "العلماء" أو "الحكماء" عوضـا عن مصطلح "المثقف" الذي نستخدمه اليوم، ومن الملاحظ أن

المصطلح الأول ذو دلالة دينية في تراثنا الإسلامي، أما المصطلح الثاني فذو دلالة دنيوية باعتقادنا.

يسعى العلماء، الذين ينبتون في مضايق صخور الاستبداد، جهدهم لتنوير عقول الناس بوسائل مباشرة عن طريق الخطابة في الجوامع والتدريس أو بوسائل غير مباشرة عن طريق الكتابة، لذلك نجدهم يستحقون تعريف القرآن الكريم لهم بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى "**إن الأرض يرثها عبادي الصالحون**"(سورة الأنبياء ، آية رقم ١٠٥)**.**

إن هؤلاء العلماء لابد أن يمتلكوا صفات متميزة تؤهلهم لقيادة الأمة، عليهم أن يمتلكوا "**نسمة مروءة وشرارة حمية" بالإضافة إلى الثقافة العامة، والاختصاص في جانب يكسبه احترام قومه، والمحافظة على آداب وعادات قومه كي يشعروا بانتمائه إليهم، فيحترموا آراءه،** وهو يدعو العالم إلى سلوك يقربه من قلوب الناس، لذلك عليه أن يقلل الاختلاط بهم ولا يصاحب الممقوت عندهم، ويدعوه إلى أن يلتزم جانب الحذر، فيحرص على الإقلال في بيان آرائه، وأن يتباعد ما أمكنه عن مقاربة المستبد وأعوانه، كما يحذر الكواكبي من استخدام الشدة في مقاومة المستبد، وأن يلجأ

العالم إلى التدرج عن طريق التعليم والتحميس حتى يتم اقتناع الناس بالفكر غير المألوف، وبذلك يدعو إلى تهيئة الأذهان لرفض الاستبداد وإيجاد بديل له قبل لجوء المصلح إلى المقاومة.

كما ينبه الكواكبي إلى أن معرفة الغاية شرط العمل، وأن المعرفة الإجمالية لا تكفي العالم لابد من تعيين الهدف والخطة تعيينا واضحا موافقا لرأي الأكثرية(١٩) .

لا يلجأ الكواكبي في مقاومة الاستبداد إلى الجانب التنظيري فقط، الذي يبدو أكثر سهولة بالمقارنة مع التفكير في الجانب العملي والإجرائي لمواجهة الاستبداد.

وبذلك يحمل المثقف مسؤولية المواجهة، وتنوير عقول العامة، وقد كانت الخطوة العملية الأولى الاستماع إلى آراء الآخرين، إذ لا يحق للعالم، مهما بلغ من العلم، أن ينفرد برأيه، أي أن يمارس خطة أو يحقق هدفا بمعزل عن مبدأ الشورى، إذ إن تغيير الاستبداد لن يتم باتخاذ قرار فردي، حتى لو كان صاحب هذا القرار عالما، فإنه لا يستطيع، لدى الكواكبي، الاستغناء عن رأي الجماعة.

كما أنه يطالب الرائد العالم الذي يتصدى لعمليـة تنـوير أمته بأن يكون متمتعا بأخلاق رفيعة، تقربه من قلوب الناس وعقولهم، وهذا كله لن يتحقق له ما لم يعـش بعيـدا عـن المستبد، فيصح عندئذ أن يكون مثلا أعلى لهم، يـؤثّر فـيهم دون إملاء أو إكراه.

ولكن كيف ينور المثقف العوام؟

يوضح الكواكبي أن على رجل العلم أن يكون طبيبا فـي اعتنائه بالعوام، فيبدأ اهتمامه بقوة جسم المريض، ثم يكـون إرشاده متناسبا مع حجم الغفلة التي يعاني منهـا، فالسـاهي ينبهه الصوت الخفيف، والنائم يحتاج إلـى صـوت أقـوى، والغافل يلزمه صياح وزجر والعوام **"من هذا النوع الأخير، يقتضي لإيقاظهم الآن بعد أن ناموا أجيالا طويلـة دون أن يسقيهم النطاسي البارع مرا من الزواجر والقوارص"(٢٠)** من أجل يقظتهم وتنوير عقولهم، ليستطيعوا رؤيـة الحقيقـة ويقارعوا الاستبداد على أسس سليمة، نلاحـظ هنـا كيـف تميزت لغة الكواكبي بجمالية الصورة البصـرية والحركيـة التي تستطيع تجسيد الفكرة بحيوية، فحال العوام في الغفلـة والجهل ليست واحدة لهذا شبههم بتدرج حالات الإنسان النائم

(الساهي، النائم، الغافل) لذلك تحتاج كل حالة إلى لغة تتناسب قوتها الحركية وشدة الغفلة، فمن نام طويلا لا بد له من دواء يقدمه له العالم (الطبيب) وقد أمعن الكواكبي في وصف هـذا الدواء الذي جعله لغة قاسية تعتمد المرارة والزجر والقارص من القول، كل ذلك من أجل إيقاظهم من غفوتهم.

لن تكون مهمة العلماء سهلة في حربهم ضد المستبد، وفي سعيهم لإنارة طريق العوام نحو الحياة الكريمة والحـرة، إذ يجتهد المستبد في إعاقة مهمتهم هذه، لذلك يبـدو الطرفـان (العلماء والمستبد) يتجاذبان العوام كل إلى جانبه.

وقد بين الكواكبي أن هوية هؤلاء العوام هي الجهل، الذي يولّد الخوف، ومن ثم الاستسلام للمستبد، أمـا حـين يـتعلم العوام فإنهم يكتسبون الجرأة في القول ومن ثم الفعـل، ممـا يخيف المستبد، لأن ذلك إنذار بزوال استبداده.

تبدو لنا الصورة الفنية جسرا أساسيا لإيصال أفكاره، لذلك نجده يوضح العلاقة بين المثقف والرعية من العـوام عبـر التشبيه المؤثر التالي "**العوام صبية أيتام نيـام، لا يعلمـون شيئا، والعلماء هم أخوتهم الراشدون، إن أيقظـوهم هبـوا وإن دعوهم لبوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت.**"

تدهشنا هذه الصورة ذات الـدلالات الدينيـة والإنسـانية (العوام: يتامى صغار هم بأمس الحاجـة لرعايـة أخـوتهم الناضجين من العلماء) ومثل هذه الصورة ترسم أو بالأحرى تؤسس لعلاقة أخوية بين المثقف والعوام، فإن لم يمارس هذا المثقف دوره التنويري، فإن النتيجة ستكون وخيمة، سيستمر نوم العوام الذي هو أشبه بالموت، وبذلك تصبح حياة العـوام في فاعليتهم الفكرية التي لن تكون إلا إذا مـارس المثقـف دوره في يقظتهم أي في تعلـيمهم كـي يسـتعيدوا وعـيهم وكرامتهم، فينبذوا خوفهم.

ويوضح الكواكبي للمثقف بأن مهمته لن تكـون سـهلة، سيجعله المستبد يدفع ثمن هذا الدور التنـويري غاليـا، قـد يتعرض للمطاردة والتنكيل من قبله، فيضطر للهجـرة مـن دياره، وهذا ما حصل لكل الأنبياء والعلماء العظام والأدبـاء النبلاء.

لن يكون هذا الاهتمام بالعلم والمعلم (المثقف) والعلاقـة بينه وبين العامة حكرا على الكواكبي، وإنما سـمة أساسـية لدى مفكري عصر النهضة، فسعادة الأمة ورقيها، كما يرى جمال الدين الأفغاني، أن يكون فيها طائفة تخـتص بـالتعليم

وتنوير العقول بالمعارف الأصيلة، إذ إن أهم الأركـان فـي الديانة الإسلامية تنصيب المعلم ليؤدي عمل التعليم، وإقامـة المؤدب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكـر(٢١) وبـذلك يجتمع لدى المسلمين في رجل واحد المعلم والمربي ورجـل الدين.

العلاقة مع الغرب:

لاحظ الكواكبي، مع نهاية القرن التاسـع عشـر، عـداء الغربيين للمسلمين واحـتلالهم أرضـهم (مصـر، شـمال إفريقيا،...) وفي الوقت نفسه لاحظ محاولتهم استمالة العرب من غير المسلمين، وادعاء حمايتهم من الاضطهاد العثماني، وفي رأي الكـواكبي أن العلاقـة بـين المسـلمين العـرب والمسيحيين العرب لم تشبها أيـة شـائبة إلا حـين تـدخل الغربيون، لهذا يدعو العرب باختلاف أديانهم للتفاهم، ونجده يبحث عن نقاط مشتركة تجمع بينهم: أهمها اللغة الفصـيحة التي وحدتهم عبر الأجيال بالإضافة إلى الأخـوة، يخـاطبهم قائلا "**دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديـان تحكـم فـي الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمات سـواء ألا وهـي:**

فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحي طلقاء أعزاء...أل ـيس العربي أخفّ استحقارا لأخيه من الغربي؟

هذا الغربي قد أصبح ماديا لا دين له غير الكسب، فم ـا تظاهره مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذبا، هؤلاء الفرنسيس يطاردون أهل ال ـدين، ويعمل ـون عل ـى أنه ـم يتناسونه، بناء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق، إلا كما يغرد الصياد وراء الأشباك ! لو كان للدين ت ـأثير ف ـي الغربي لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون...

الغربي مهما مكث في الشرق لا يخرج عن أن ـه ت ـاجر مستمتع، فيأخذ فسائل الشرق ليغرسها في بلاده التي لا يفتأ يفخر برياضها ويحن إلى أرباضها.

قد مضى على الهولنديين في الهند وجزائره ـا، وعل ـى الروس في قازان، مثلما أقمنا في الأندلس، ولكن ما خدموا العل ـ ـ ـ ـم والعم ـ ـ ـ ـران بعش ـ ـ ـ ـ ـر م ـ ـ ـ ـ ـا خدمناهما"(٢٢).

يتلمس المرء هنا وعي الكواكبي خصوصية بلاد الشام في كونها يعيش فيها أتباع ديانات مختلفة، وقد لاحظ اس ـتغلال الغربيين للمسيحيين فادعوا حمايتهم من المس ـلمين، فنج ـده

يبحث عن عوامل داخلية توحد بين المسـلمين والمسـيحيين (اللغة العربية) وعن عوامل خارجية (احتقار الغربيين للعرب سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين) .

ولو تأملنا لغة الخطاب الذي استخدمه فـي حـواره مـع المسيحيين للاحظنا أن الكواكبي قد اسـتخدم لغـة الـنص المقدس الذي يقوي أواصر المحبة (كلمـات سـواء) فيبعـد الضغينة عن القلوب ويوقظ المحبة والتفـاهم بلغـة القـرآن الكريم "**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلـى كلمـة سـواء بيننـا وبينكم**"(سورة آل عمران، آية ٦٤).

إنه يخاطبهم بلغة دينية تعد المؤثر الأكبر في حياة عامـة المسلمين، وبذلك يؤسس للتقارب بينهم وبين المسيحيين على أسس دينية، عبر ما يظنه الغربيون مفرقا بينهما، هـذا مـن جانب ومن جانب آخر يكون خطابه أكثر تأثيرا في النفـوس وإقناعا لعقول كلا الطرفين، فيبـين للمسـلمين أن القـرآن يأمرهم بالعدل والتفاهم مع إخوانهم من أهل الكتاب، ثم يبين للمسيحيين الذين لا يعرفـون تعـاليم الإسـلام أن دسـتور المسلمين (أي القرآن الكريم) يأمرهم بالتفاهم القـائم علـى المودة والعدل مع أهل الكتاب، كذلك نجده يتوجه صـراحة

إلى المسيحيين بخطابه، كي يبرز لهم نذالة الغربيين الـ ذين يدعون حماية المسيحيين، وهم في الحقيقة علمانيون لا ديـ ن لهم في بلادهم، ولو كان للدين تأثير في حياتهم لما تصارعوا وهم أبناء الدين الواحد بسبب اختلافهم العرقي (الصراع بين اللاتين والسكسون) .

إذاً الغرب يشوه الدين و يجعل منه مصيدة يصيد بها أبناء الشرق ليزرع الفرقة بينهم، مستفيدا من ضعفهم، وهو يؤكـ د أن نجاح سياسة الإنكليز في المستعمرات كان سببه انقسـ ام الأهالي على أنفسهم بسبب اختلافهم في الأديان والمـ ذاهب، فهو يؤكد بطريقة غير مباشرة ضرورة وحدة العرب بكافـ ة أديانهم ومذاهبهم.

نجد الكواكبي منذ وقت مبكر يفضح حقيقة الغـ ربيين وأن ما يسيرهم في علاقاتهم مع العـ رب وغيـ ر العـ رب، هـ و مصالحهم التجارية والاقتصادية، فهم ينهبون خيرات الآخرين ليتمتعوا بها في بلادهم، ولا ينسى أن يذكّر بمآثر العرب في الأندلس، فيظهر الفرق بين إنجازات العرب المسـ لمين فـ ي الأندلس والغربيين في مستعمراتهم، فقـ د نشـ ر المسـ لمون الحضارة، في حين نشر هؤلاء الغربيون الدمار والضـ عف

في مستعمراتهم!! وقد كانت المقارنة بين الشرقيين والغربيين أحد هموم الكواكبي في كتابه "طبـائع الاسـتبداد..." ليبـين للعرب أن الغربي شريك للمستبد كاشفا القناع عـن زيـف دعواه في تمدين الشعوب المتخلفة، لـذلك فـإن اسـتمرار الاستبداد في البلاد العربية يعني استمرار مصالح الغربيين.

المقارنة بين الغرب والشرق:

أحس الكواكبي بالهوة الكبيرة بين الغـربيين والشـرقيين لذلك يبدو لنا مشغولا بأسباب تخلفنا وتقدم الغربيين، وذلـك عبر تلمس الفوارق الأساسية، فرأى أن هناك فارقا أساسـيا بين الغربيين والشرقيين في مجال الاسـتبداد، فالمسـتبدون الغربيون "**يعينون الأمة على الكسب ليشاركوها، والشرقيون لا يفتكرون في غير ساب الوجود**" وقد لاحظ الكـواكبي أن الاستبداد الغربي أحكم وأرسخ وأشد وطأة، ولكن مع اللـين، كما لاحظ فارقا مهما له أهمية في مستقبل الاسـتبداد، إذ إن الغربيين حين يثورون ضد الاسـتبداد نجـدهم يسـتبدلونه بحكومة عادلة، أما الشـرقيون فـلا يفكـرون بالمسـتقبل، ينصرفون إلى الآخرة، وحين يقـاومون الظـالم نجـدهم لا يفكرون بمن يخلفه، فيقعون في الظلم ثانيـة، علـى نقـيض

الغربيين الذين يقضون على المستبد قضاء مبرما لاعتمادهم النظرة المستقبلية، في حين نجد الشرقيين أسلموا دنياهم إلـى آخرتهم فسهل عليهم الاستسلام للاستبداد.

لذلك يصف الكواكبي الشرقي بأنه ابن الماضي والخيال، أما الغربي فهو ابن المستقبل والجد، وهو مادي، قوي النفس، حريص على الاستئثار والتملك، يرى الفضيلة في القوة، وكل القوة في المال، في حين يغلب على أهل الشرق ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان، ويرون العز في المروءة، والغنى في القناعة والفضيلة والراحة في الأنس والسكينة.

وقد وجدناه يضع يده على علة الضعف فينا، إنها إلغـاء العقل واعتماد الحس والعاطفة، فبـين أن الشـرقي سـريع التصديق يحكم بإحساسه، والغربي لا ينفي ولا يثبـت حتـى يرى ويلمس فيحكم بعلمه وعقله، كما يبين المفهوم الضـيق للشرف لدى الشرقي، فهو أكثر ما يغار على الفـروج كـأن شرفه كله مستودع فيها، في حين يبين أن الغربي أكثر مـا يغار على حريته واستقلاله، والشرقي حريص علـى الـدين والرياء فيه، في حين نجد الغربي حريص على القوة والعـز والمزيد فيهما.

وهكذا استبدل الغربيون بوقار الدين عـروس الحريـة، واستبدلوا برابطة الاشتراك في الطاعة للمسـتبدين رابطـة الاشتراك في الشؤون العمومية، مما يولّد حب الوطن، وبذلك جعلوا قوة حركة الأفكار تيـارا سـاطوه علـى الرؤسـاء السياسيين والدينيين.

ثم وجدناه يوضح أمرا مهما، يعد أبرز فارق بين الغربيين والشرقيين، هو أن الغربيين يضعون قانونا لأميرهم يسـري عليه، على نقيض الشرقيين الذين يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم! لذلك كان قضاؤهم وقدرهم ما يصدر مـن شـفتي المستعبدين، أما الغربيون فقضاؤهم وقدرهم من ا .(٣٢)

إن أزمة الشرقيين تكمن في إلغاء عقولهم، وتقديس الفرد المستبد إلى درجة يعدون كل ما يتفوه به مقدسا كأنه قضـاء وقدر لا يرد، في حين لم ينس الغربيون أن مصدر القضـاء والقدر ا تعالى لا علاقة لمخلوق فيه، وهنا يعود ثانية إلـى تشوه مفهوم القضاء والقدر لدى المسلمين الذي هو تشوه في فهم الدين إذ تقدس أقوال الحاكم لديهم، فيحولون أنفسهم عبيدا له مع أن العبودية وحده في الإسلام.

إن مثل هذه المقارنة بين أمة قوية متحضرة وأمة متأخرة ضعيفة قد تحبط المسلمين، فيسري اليأس في نفوسهم، خاصة حين ينظرون إلى الماضي حيث كانوا أهل علم وحضـارة وهذا ما لا يريده الكواكبي، وإنما يريد أن يحرضهم بطريقة غير مباشرة فيوضح لهم كيف تجاوز الغربيون ضعفهم مـع أنهم كانوا متأخرين مثلهم، لكنهم نهضوا في وقت ظننا دوام الحال فنمنا، في حين اجتهد هؤلاء الغربيون فلحقونا، ولبثنا مصرين على النوم فاجتازوا وسبقونا، فعدنا إلى كهف النـوم مستسلمين للقضاء والقدر، ناسين الأخذ بالأسباب، مما رسخ اليأس في النفوس، فزادنا ضعفا على ضـعف، وهـذا مـا يرفضه الكواكبي، ويريد من أمته أن تتجاوزه كما تجـاوزه الغربيون، لذلك يتوجه في خطابه إلى الشباب الذين هم القوة الحقيقية للتغيير والنهضة، وهم دعائم أية مواجهة مع الآخـر الذي يهدف القضاء على كياننا وهويتنا.

ولكن كيف يواجه اليوم الشباب المسلم الغرب؟

وكي لا يشيع اليأس في النفوس، يدعو الكواكبي الشـباب المسلم إلى مواجهة الغرب، الذي بدأ يعتـدي علـى الـبلاد الإسلامية، ويبين أن هذه المواجهة ميسـورة خاصـة حـين

يعيش هؤلاء الشباب الحرية، ويكسرون قيود الاستبداد أولا، وهم لن يستطيعوا ذلك ما لم يجعلوا شعارهم جملة من المبادئ والقيم الراقية التي تتجلى في أخلاقهم وممارستهم.

وقد جعل **الصدق والصراحة وعدم الرياء في الدين** أولى المبادئ التي على الإنسان أن يجسدها "**ديني ما أظهر ولا أخفي**" ثم الوقوف إلى جانب الحق مهما كانت العاقبة "**أكون حيث يكون الحق ولا أبالي**" وقيمة الإنسان وشرفه في العلم "**الشرف في العلم فقط**".

يسعى الكاتب إلى تكوين شخصية مستقلة للشباب المسلم تعتمد على ذاتها "**أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي**" عندئذ تحقق ذاتها بالجد والعمل وتؤمن بالمستقبل دون أن تتكل على الماضي "**أنا إنسان الجد والمستقبل لا إنسان الماضي والحكايات**" ولن تستطيع هذه الشخصية تحقيق استقلالها إلا إذا كانت لا تخاف أحدا من البشر "**أخاف ا لا سواه**" فتتحرر من الخوف الذي هو أقوى الرذائل وتواجه المستبد.

ويخبرنا، عبر استخدامه صيغة حميمة هي المتكلم، عن حقائق نسيناها في حين نهضت الحضارة الغربية على

أسسها، فقد نسينا أن الإنسان أهم من الأشياء، لـذلك يجـب تسخير السلطة والقانون من أجله "**نفسي ومنفعتي قبـل كـل شيء**" وأن حقيقة الحياة تقوم على العمل الذي يورث السعادة "**الحياة كلها تعب لذيذ**" كذلك نجد الإنسان العربـي مـازال ينسى حقيقة من حقائق الحياة وهي الزمن، فيضيعه دون أي اهتمام على نقيض الغربي، فنجد الكواكبي يذكره **بأن "الوقت غال وثمين**" لأنه حقيقة الحياة.

إذاً يريد الكواكبي بناء شخصية جديدة للإنسان، تسـتطيع أن تنهض بأعباء حياتها المتخلفة، وتصنع التطور الحضاري الذي سبقنا إليه الغرب، لذلك يذكره بمبادئ وقيم نسيها بسبب المعايشة الطويلة للتخلف، ويبين للإنسان العربي أنـه يملـك إمكانات التطور فيما لو آمن بهذه القيم والأفكار وعمل بها.

نلاحظ أن الكواكبي قد استخدم صيغة المتكلم أثناء حديثه عن طريق الخلاص الذي على الشباب المسلم اتباعه، ومثـل هذه الصيغة التي هي أقرب الصيغ إلى نفس المتلقي، والتـي توحي بتوحد الكواكبي معه، فهو يريد أن يهذب نفسه ويرتقي بها، وبذلك يوحي للشباب أن ما ينقصه ينقصهم، لذلك سيبدأ بترميم ذاته، فيكون بذلك أقوى تأثيرا فـي نفـس المتلقـي،

ويبتعد عن اللهجة التعليمية، ذات السمات الفوقية التي يلجـأ إليها الوعاظ عادة في مخاطبة الشباب!

إذاً إن البداية الحقيقة لأي تغيير تكون بتغيير الذات أولا، وهو بذلك يتبع المنهج القرآني في الإصلاح "**إن ا لا يغيـر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"(سورة الرعد آية رقم ١١)**.**

ولهذا يمكننا القول بأن الكواكبي تميز عـن غيـره مـن المصلحين بقدرته على توظّيف ثقافته الدينية وموهبته الأدبية من أجل ابتكار خطاب مناسـب للعامـة يـنهض بعقـولهم وبوجدانهم معا!

بعد هذا كله نتساءل: "هل صحيح أن رواد النهضـة بمـا فيهم الكواكبي كما يرى الأستاذ عدنان عويـد "**لـم يتبنّـوا الموقف الفلسفي العقلاني في الفكر التنويري الغربي الـذي شكّل في الغرب لحمة المعتقد السياسي والفكري الليبرالـي الغربي، لذلك ظل اللاهوت الديني يشكل حجر الزاوية فـي تفكيرهم، فجاءت الأفكار العقلانية في كتاباتهم، هنا، بنـاء على هذا الموقف الفكري، ذات طابع وصفي شكلاني، تفتقد إلى الروح الموضوعية"(٢٤).**

لا نستطيع أن نقبل هذا القول، فقد اتسم فكـر الكـواكبي بالعقلانية، رغم اعتماده على الموروث الديني، فقد لاحظنـا كيف وظّف الفكر الديني لصالح الحرية والتطـور، كمـا لا نستطيع أن نقـول: إن مواقفـه الفكريـة تتسـم بالوصـفية والشكلانية وغير الموضوعية، فقد رأيناه يسعى إلى بناء أمة جديرة بالنهضة، فيبدأ ببناء إنسان جديد، يقاوم الاستبداد، عن طريق غرس مبادئ النهضة في أعماقه، وهي قـيم الحريـة والعمل والعلم والجرأة في قول الحق ونزع فتيل الخوف من النفوس، كيف نستطيع أن نتهمه بعدم الموضوعية وقد خاطب الناس بلغة يفهمونها ويقدسونها، لغة الدين الإسلامي، محاولا إحياءهم بما يمتلكون من إمكانات داخلية تهجع فـي ذواتهـم دون أن ينتبهوا إليها، بل يراها البعض، أمثال الأستاذ عويد، من أسباب تخلفنا وضعفنا.

بالإضافة إلى ذلك كله لجأ إلى فضح أهم عوامـل القهـر والتخلف (المستبد، أعوانه، وسائله المـدمرة...) فحـاول أن يشخص الداء ويقترح الدواء.

أعتقد أن المشكلة ليست في الفكـر الـذي طرحـه رواد النهضة، وإنما في عدم استمراره لدى المفكرين المعاصرين،

إذ غاب عليهم التقليد لفكر الآخر الذي يرى في الفكر الديني نقيضا للتطور والعقلانية!! وكذلك في عـدم وجـود قـوى سياسية واقتصادية تتبنى هذا الفكر وتحاول تجسـيده علـى أرض الواقع، وبذلك لم يحظ فكر النهضة بالرعاية والتنمية، لذلك من الملاحظ أننا ما زلنا عالة على هـذا الفكـر ولـم نطوره، بل في كثير من الأحيان نكصنا مرتّدين عنه!!

تتجلى لنا قوة تأثير الكواكبي في كتابه "طبائع الاسـتبداد" ليس في البلاد العربية وإنما في البلاد الإسلامية أيضا، ففـي كتاب الشيخ محمد حسين النائيني "تنبيـه الأمـة وتنـزيه الملة"(١٩٠٩) استطاع أن يصـوغ أفكـار الكـواكبي فـي الاستبداد وضرورة الإصـلاح، مسـتندا إلـى المرجعيـة الإسلامية نفسها في مكافحة الاستبداد (القرآن، الحـديث...) والذي يؤكد "تأثر الشيخ النائيني بفكر السيد الكـواكبي هـو استخدامه لنفس مصطلحات كتاب طبـائع الاسـتبداد، مـع ترحمه على من قسم الاستبداد إلى استبداد سياسـي وآخـر ديني"(٢٥) (أي ترحمه على الكواكبي) .

تأملات في جماليات الخطـاب الأدبـي لـدى الكواكبي:

لاحظنا، سابقا، كيف خاطب الكواكبي المتلقي بكـل مـا يملك من أدوات فكرية وفنية تؤثر في عقله وقلبـه موظفـا مقدرته الأدبية في خدمة أفكاره، من أجل أن يؤثر بـالمتلقي من ناحيتي الفكر والوجدان، فيكون تأثيره عندئذ أعمق وأنفذ.

لجأ الكواكبي إلى الخطـاب الأدبـي ليسـتعين بأمضـى الوسائل في حياة الإنسان العربي وأعرقها فـي وجدانـه، إذ بفضلها يستطيع إيقاظ قومه واستخراج كنوز وعيهم وهـز مشاعرهم ونزع الألفة عن حياة ذليلة، فلجـأ إلـى "**اللـوم الإرشادي**" على حد قوله، كي يبين لهم أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة، فيذكرهم ويحرك قلوبهم بلغة العقل التي يقدمها بطريقة تصويرية تمنح فكرته الحيوية والتأثير تارة، وساخرة تشيع المرارة في النفـوس وتسـتفز الضمائر تارة أخرى، وذلك حين يقوم بتضخيم الحالة البشعة التي عليها الإنسان المتخلف.

لو تأملنا التصوير لديه للاحظنا كيف تتألق الفكرة بفضله، فتشع وضوحا وحيوية وغنى في الدلالة، فها هو ذا يصـف الإنسان العاجز الذي لا يقوم بما يصـلح لـه، ويرضـى أن

يعيش حقيرا مهانا بـ "**الدرن في الجسم أو كالزائد من الظفر يستحقان الإخراج والقطع**".

إن مثل هذه الصورة للإنسان العـاجز لا تزيـد المعنـى وضوحا فقط، وإنما تستفز المتلقي إذ تجسد له بشاعة حالتـه المستكينة (تنتزع إنسانيته وتحوله إلى ما يشـبه بالـدرن أو الظفر) وبذلك تحرضه على النفور من حالتـه وتجاوزهـا! (عن طريق الإخراج والقطع) لأن الحفاظ على الجمود وعدم التطور يعني استحقاقا للموت، فقد بات هذا الإنسان الجامـد مسيئا إلى أمته يعيش عالة عليها، بل هو أحد أسباب مواتها.

وقد وجدناه يحدد وظيفة المثقف التنويرية، إذ من واجبـه أن يسعى في رفع قيود الضغط عن العقول لتنطلق في النمو "**فتمزق غيوم الأوهام التي تمطر المخـاوف**" لـذلك يشـبه المثقف بالطبيب الذي من واجبه الاعتناء بجسم المريض ثـم بعقله، ليتم القضاء على مسببات الموت (الأوهام، المخاوف) وإعادة الحياة (الغيوم، المطر) إلى الإنسان، ولعـل اسـتعانة الكواكبي بعناصر الطبيعة في تكوين الصورة منحها جمـالا خاصا ذا دلالات إيجابية.

بالإضافة إلى عناصر الطبيعة يلجأ في التصوير إلى عناصر يستمدها من الموروث الديني (سورة الكهف) مما يمنح خطابه التحريضي فعالية أكبر، لهذا بدت لنا تتشبيهاته قاسية تستفز المتلقي وتحرضه على تغيير أوضاعه الذليلة، فقد طال نوم قومه، لهذا يخاطبهم قائلا "**هل أنتم كأهل الكهف ناموا ألف عام ثم قاموا وإذا بالدنيا غير الدنيا والناس غير الناس، فأخذتهم الدهشة والتزموا السكون**" .

ونجده يحاول أن يستفز قومه عبر أسلوب المقارنة "**فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده إلا بالتذلل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتملّق والدعاء؟!...**

يا قوم جعلكم ا من المهتدين، كان أجدادكم لا ينحنون إلا ركوعا ، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الأخوان، وأجدادكم ينامون في قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء! البهائم تود لو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيدكم قوائم..."**(٢٦)**

نلاحظ أن الكواكبي يختار عناصر تشبيهاته ذات الدلالات السلبية (الطفل، الشيخ، البهائم...) ممـا ينـ ـزع الرجولـة والكبرياء عن قومه، فيفرغ قومه من الـدلالات الإيجابيـة! لذلك لم يجد صورة تجسد ضعف قومه وبـؤس حـالتهم إلا صورة الطفل العاجز الذي ينال حاجتـه بوسـائل وضـيعة تتناسب مع حالة عجزه! وكذلك صورة الشيخ الذي لا يجـد سوى التملّق وغيره من الوسائل التافهة لمتابعة عيشه الذليل.

ولكن من أجل أن يبين أن هذه الحالة ليست حالة أزليـة تلازمهم، ومن أجل أن يبلغ استفزازه مداه نجده يقارن بـين حالة أجدادهم الذين صنعوا حضارة وأمجـادا (لا يعظمـون أحدا سوى ا ، كرامتهم أهم من حياتهم) وبين حالتهم الراهنة (الذل أمام الأغنياء والمستبدين، غير مهتمـين بقـيم العـزة والكبرياء)

وقد اختار ألفاظا تنتمي للموروث الديني وتجسيد عبادة تعـد عمود دينهم (الصلاة) فاستخدم أركانها (الركوع، السجود) فـي تجسيد حالة العبودية لغير ا تعالى! إذ إن صـلاة المسـلمين، الأذلاء أفرغت من مدلولها الديني وباتت دنيوية، فلم تعد توجـه

، وإنما صارت توجه للأغنياء المستبدين، وهذا منتهى الكفـر في الإسلام.

وهو لا يكتفِ بتشبيه قومه بإنسان انتزعت منه الرجولة، بل نجده يجسد حالتهم بتشبيه أكثـر اسـتخفافا واسـتفزازا، فيشبههم بالبهائم، تعبيرا عن ضيقه من بؤس حـالتهم التـي وصلت إلى هذا الحد البهيمي، بل نجده يرى أن البهائم أكثر طموحا من قومه، إذ قد تأتي ببعض الأفعال محاولة رفـض حياتها الذليلة، في حين يستمرئ هؤلاء حياة الذل، لـذلك لا يرى أنهم يستحقون أعضاء بشرية تليق بالإنسـان العزيـز، فجعل أعضاءهم تحاكي أعضاء الحيوانات حتى بدت أيـديهم قوائم، حين فقدوا كرامة البشر، وأصبحوا عالة على الوجود الإنساني، إنهم بذلك قد بلغوا أسوأ حال، فأتلفوا ما ورثوه عن السلف، لذلك يفضل الكـواكبي علـيهم العجمـاوات التـي استطاعت أن "**تنقل رقيها إلى نسلها بأمانة**".

يبدو لنا أن تكرار تشبيه قومه بـ(البهائم والعجماوات...) من أجل تحفيزهم وتذكيرهم بالحالة المتردية التـي وصـلوا إليها، فقد أصبحوا عالة على الإنسانية، حتى إن الحيوانـات تعيش حياة أفضل من حياتهم، إذ تحاول تطوير حياتها!!

وبعد أن يستفز قومه بتشـبيهاته القاسـية، التـي تجسـد مأساوية وضعهم وبشاعة تخلفهم، نجده يعمد إلـى الحـوار الهادئ معهم مستخدما التشبيه البسيط، فنجده يشبه حالة قومه المستسلمين للمستبد بإنسان يوكل أموره إلى وكيـل يعيـث فسادا فيما وكّل به من أمور مادية ومعنوية **"هل ترون أثـرا للرشد أن يوكل الإنسان عنه وكيلا ويطلق له التصرف فـي ماله وأهله، والتحكم في حياته والتأثير على دينه وفكـره، مع تسليف هذا الوكيل العفو عن كل عبث وخيانة وإسراف وإتلاف؟... هل خلق ا لكم عقلا لتفهموا به كل شيء، أم لتهملوه وكأنه لا شيء "إن ا لا يظلم الناس شيئا، ولكـن الناس أنفسهم يظلمون"..."(٢٧)**

عبر هذا التشبيه البسيط، الذي هو أقرب إلى لغة التعامـل اليومي، حيث يسلم الإنسان وكيله كـل مـا يملـك، علـى الصعيدين المادي والروحي، دون أية محاسبة، لـذلك يعـد مسؤولا عن انحرافات هذا الوكيل، وهو عبر هذا المثل يجسد حال أمته مع المستبد، فيلقي بمسؤولية الانحطاط على أمتـه، ولا يلقيها على الآخرين، إذ وكّلت أمورها للمستبد، وأطلقت يده العابثة دون أي حساب، ومما زاد حجته قوة اسـتخدامه

التناص الديني وذلك باقتباس آية من القرآن تحمل المسـلمين المسؤولية في ترديهم، كما زاد حجته قوة وتأثيرا اسـتخدامه التشبيه والحوار، وبذلك يجنّد كل وسائل الإقناع، فيلجأ إلـى الدينية (القرآن الذي هو أعلى حجة لدى المسلمين) والأدبيـة (التشبيه) والمنطقية (الحوار...) لعله يجد جسر تواصل بينه وبين قومه.

لو تأملنا اللغة المستفزة لدى الكواكبي لوجـدناها تعتمـد بالإضافة إلى التشبيه الاسـتفزازي (حيـث يشـبه النـاس بالحيوانات والأطفال...الخ) لغة التضاد التي تجسد دلالاتهـا أبرز حالتين متناقضتين يمكن أن تصادف الإنسـان (الحيـاة والموت) ليصل في النهاية إلى إعلان موت قومه "**يا قـوم! ينازعني وا الشعور هل موقفي هذا في جمع حي فأحييـه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة؟ يا قـوم لستم بأحياء عاملين، ولا أموات مستريحين! بل أنتم بـين بين!! في برزخ يسمى التنبت، ويصح تشبيهه بـالنوم! يـا رباه! إنني أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة وهم فـي الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى لأنهم لا يشـعرون**"

.

وإن كنا قد لاحظنا سيطرة لغة الموت الحقيقي (القبـور) والوهمي المجازي (النوم) على نصه هذا، مما يوحي بحالـة أمته، لهذا بدا لنا تساؤله تساؤلا اسـتنكاريا! الغايـة منـه تحريض المتلقي للبحث عن وسائل تحيي وجوده، وتمنحـه شهادة الحياة، عوضا عن شهادة الموت، إنه يريد أن يحرضه ليرقى بنفسه من حياة أشبه بحياة الحيوان! أي من حياة هـي نوم لا يقظة فيه، هي رديف حقيقي للموت!!

ولو تأملنا لغته المستفزة للاحظنا اعتمادها لغة السـخرية، فقد وصل الأمر بقومه إلى الخوف من ظلّهم بـل يخـافون قوتهم التي يملكونها، فيجيشون الجيوش من أنفسـهم ليقتلـوا بعضهم بعضا، ويترامون علـى المـوت خشـية المـوت، ويحبسون، طول عمرهم، فكرهم في الدماغ، ونطقهـم فـي اللسان وإحساسهم في الوجدان، لذلك يخاطبهم قـائلا: "**فمـا بالكم يا أحلاس النساء مع الذل تخافون أن تصيروا جلّـاس الرجال في السجون(٢٨).**

تجسد هذه العبارة غاية السخرية من قومه الذين يفضلون ملازمة نسائهم في بيـوتهم أذلاء علـى مجالسـة الرجـال

موفوري الكرامة، يسخر من خوفهم من السجن ومن مواجهة عقاب المستبد!!

لا شك أن قومه يستحقون السخرية حـين لا يسـتجيبون لخطابه الذي يرشدهم إلى طريق التطور "**يا قوم: جعلكم ا خيرة اليوم وعدة الغد، هذا خطابي إليكم، فيما هو الترقـي، وما هو الانحطاط، فإن وعيتم ولو شـذرات فيـا بشـراي والسلام عليكم وإلا فيـا ضـياع الأنفـاس وعلـى الرفـاة السلام."(٢٩)**

إن خطابه لن يوحي لأمته باليأس وإنما سيضـعها علـى مفترق طريق تختار فيه بين السير فـي طريـق الحيـاة أو طريق الموت، وقد عبر عن مرحلة الاختيار هذه بمصـطلح رأيناه في فقرة سابقة يدعوه بـ(**التبنت**) وهـو يشـير إلـى إمكانية بزوغ الحياة من الموات، لذلك نجده يمنحهم الأمل في النهضة، ويضعهم أمام فرصة الاختيار الأخير بـين الحيـاة والموت، وبذلك يمنحهم القوة الداخلية والإرادة، فيرشدهم إلى كيفية البزوغ في طريق الحياة من جديد، فلا يسمحون لأقدام المستبدين أن تدوسهم، لذلك مـن سـيختار طريـق الحيـاة والنهوض يستحق منه السلام، أما أولئك الذين لن يفهموا هذا

الخطاب فهذا دليل على أنهم مازالوا أمواتا فالسلام يوجه إلى بقايا جثثهم في القبور .

لعل الصورة المدهشة التي لا يمكن أن تبرح الذهن: هي تجسيد الاستبداد في صورة رجل يحتسب وينتسب ويتكلم مفتخرا "**أنا الشر وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضر، وخالي الذلّ، وابني الفقر، وابنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، وطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال**".

وبذلك تجتمع في نسب الاستبداد كل الرذائل ولا يخلف سوى الفقر والبطالة، مع الاستبداد تلغى كل القيم التي ترقى بالحياة الإنسانية، فيختزل الدين والشرف إلى شيء واحد (المال) هو هاجس المستبد، وبذلك يمنح الاستبداد صورة رجل لا يعرف نسبا سوى مساوئ الأخلاق، ولا يقوم بعمل سوى الدمار ولا يقتدي بقيم سوى الجهل والذل، ولا يؤمن بدين أو شرف سوى المال!

أعتقد أن التعبير الأدبي لدى الكواكبي كان ملتحما بوعيه الفكري، مما يعني أننا أمام موهبة أدبية أصيلة ازدهرت عبر التحامها بالمعاناة الفكرية، كما تألقت الفكرة حين نسجت بلغة

أدبية، مما يجعلها أكثر تعبيرا وأكثر تأثيرا في الوقت نفسـه، فعلى سبيل المثال يريد أن يحدثنا عن الحكومـة المسـتبدة و علاقتها بتخاف الشعب فلا يجد وسيلة لتقديم أفكاره سوى هذه الصورة "**الأقوام كالآجام، إن تركت مهملة تزاحمت أشجارها وأفلاذها، وسقم أكثرها، وتغلب قويها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحشة، وإن صادفت بسـتانيا يهمـه بقاءها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسنت ثمارها، وهذا مثل الحكومـة العادلـة، وإذا بليـت ببستاني جدير أن يسمى حطّابا لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخربها، وهذا مثل الحكومة المستبدة"(٣٠)**

للوهلة الأولى يتساءل المرء ما علاقة النـاس بالغابـات؟ فيكتشف أهمية الإنسان الذي يهمه الارتقاء بالأشجار، فيعمل على تقليمها وإزالة الأعشاب الضارة من حولها، لكن خيـال الكواكبي لا يبقى محصورا في تفاصيل تشبيه يتعلق بالنبات، بل ينطلق إلى تفاصيل مشهدية أكثر غنى وإدهاشا، فقد جعل للنبات طبائع الإنسان "**فدبرها حسب ما تقتضـيه طباعهـا**" ليبين أن البستاني الناجح كالحاكم العادل الذي يسوس أمتـه دون إكراه أو استبداد حسب احتياجات تقتضيها طباع رعيته،

ويمعن الكواكبي في تفصيلات الصورة فيستشرف آفاقا جديدة لها، لذلك يقدم لنا مشهدا بصريا يجسد لنـا كيـف يتحـول البستاني إلى حطّاب حين لا يهمه سوى قطع الأشجار وكسب المال، فيحلّ الدمار، وهذا ما تفعله الحكومة المسـتبدة التـي يهمها النهب والتدمير لا العمل والرعاية، وهذا مـا يحيـل الحياة المدنية إلى ما يشبه الحياة البدائية المتوحشـة حيـث القوي يأكل الضعيف!

وهكذا جنّد الكواكبي موهبتـه الأدبيـة لخدمـة أفكـاره التنويرية، عله يستطيع أن يؤثر في المتلقي ويحرز تفـاعلا بينه وبين الأفكار التي يطرحها في كتابه "طبائع الاسـتبداد" كما جنّد من أجل هذا التفاعل ثقافته الواسعة والمتميزة فـي مجال التراث الديني (قرآن، حديث، سيرة، أقوال آل البيـت والصحابة...) بل لاحظنا اسـتفادته مـن الثقافـة الغربيـة المعاصرة له والقديمة أيضا.

أخيرا يحسن بنا أن نشير إلى القفزة الرائعة التي حققتهـا اللغة العربية على يديه، فقد تخلّـت عـن قوالبهـا الجامـدة وزخرفها،ونبذت صنعتها التي تزيف القـول، فبـدت لغتـه نابضة بالحرارة والحيوية في زمن طغت الزخرفة اللفظيـة

على الأدباء والمؤرخين، ولاشك أن لمعاناته التي تكاد تكون يومية في مقارعة الاستبداد في الحياة العامة، وفي الصحافة أكسب لغته هذه الحيوية والحرارة، فبدت لغة الفكر متعانقـة مع لغة الجمال الفني بكل ما تعنيه من تخييل وتصوير، ممـا يجعل الكلمة لديه تخاطب العقول والقلـوب معـا، فيـزداد تأثيرها في الإنسان، خاصة أنها تخاطبه بما يؤسس وجدانـه من موروث ديني وشعبي.

حتى السجع الذي كنا نلحظه، أحيانا، في لغته فإنه كثيرا ما يأتي عفو الخاطر، مما يضفي على أسلوبه جمـالا فـي الإيقاع ينسجم مع عمق الفكرة لديه، دون أن يشـكل عائقـا تعبيريا لديه.



الحواشي:

١. "الأعمال الكاملة للكواكبي "طبائع الاستبداد ومصـارع الاستعباد" إعداد وتحقيق محمد جمال الطحان، مركـز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٤٣٢.
٢. جان دايه "صحافة الكواكبي" مؤسسة فكر للأبحـاث والنشـ ـر، بيـ ـروت، ط١، ١٩٨٤، ص٩٩_ ١١٥ بتصرف.
٣. المصدر السابق، ص ٤٣٨.
٤. المصدر السابق نفسه، ص ٤٦٩.
٥. نفسه، ص ٤٦٩_٤٧٠.
٦. نفسه، ص ٤٤٠.
٧. نفسه، ص ٤٤١.
٨. نفسه، ص ٤٦٥_٤٦٦ بتصرف.
٩. نفسه، ص ٤٨٥.
١٠. نفسه، ص ٥٠٣_٥٠٤ بتصرف.
١١. نفسه، ص ٤٤٤ بتصرف.
١٢. نفسه، ص ٤٥٠.
١٣. الأعمال الكاملة "أم القرى" ص ٢٩١.

١٤. الأعمال الكاملة "طبائع الاستبداد..." ص ٤٩٨.
١٥. المصدر السابق، ص ٥١٤.
١٦. المصدر السابق نفسه/ ص ٥٠٧_٥٠٨.
١٧. نفسه، ص ٤٦١ بتصرف.
١٨. نفسه، ص ٤٥٨.
١٩. نفسه، ص٥٢٩ بتصرف.
٢٠. نفسه، ص ٥٠٩.
٢١. محمود أبو رية جمال الدين الأفغاني ، سلسلة نوابـغ الفكر العربي (٢٩) دار المعارف بمصر، دون تاريخ، ص ١٠٩.
٢٢. الأعمـــال الكاملـــة "طبـــائع الاســـتبداد..." ص ٥١٥_٥١٦.
٢٣. المصدر السابق، ص ٤٩١ بتصرف.
٢٤. عدنان عويد "إشكالية النهضة في الوطن العربي من التوابل إلى النفط" دار المدى، دمشـق، ط١، ١٩٩٧، ص٩٦.
٢٥. ماجد الغرباوي "الشيخ محمد حسين النائيني" سلسـلة رواد الإصلاح (٤) قم، ط١، ١٩٩٩، ص ١٠٦.

٢٦. الأعمـــال الكاملـــة "طبـــائع الاســـتبداد..." ص ٥١١_٥١٢.

٢٧. المصدر السابق، ص ٥١٠_ ٥١١.

٢٨. المصدر السابق نفسه، ص ٥١٠.

٢٩. نفسه، ص ٥١٩.

٣٠. نفسه، ص٤٨٦ .

■ ■

إلى الباحث جان دايه

أهدي هذا البحث

تحية لجهوده، إذ لولاها لما كان

الكواكبي الصحفي الأديب

بدا ميل الكواكبي للصحافة منذ شبابه المبكر قبل أن يبلـغ العشرين من عمره، فقد رأى فيها خير منبر يواجـه عبـره الفساد، وينشر الوعي للنهوض من بؤس التخلف، بدأ عملـه أو بالأحرى كفاحه في "الفرات" جريدة حلب الرسمية، التـي كانت تصدر باللغتين العربية والتركية، حرر فيهـا حـوالي أربع سنوات (١٨٧٢_ ١٨٧٦) ثم هجرها ليصدر صـحيفة "الشهباء" (١٨٧٧) التي تعد أول صحيفة عربية تصدر فـي حلب، وقد كانت أسبوعية تصدر كل يوم خمـيس، أوقفتهـا السلطة العثمانية بعد صدور العدد السـادس عشـر بشـكل نهائي، بعد أن أوقفتها قبل ذلك مرتين، لكنه لم ييأس، فسارع إلى إصدار صحيفة "الاعتدال" باسم صـديقه (شـريف زادة سعيد) في عام (١٨٧٩) وقـد صـدرت بـاللغتين العربيـة والتركية بناء على أوامر السلطة العثمانية، رغم ذلك أوقفتها الحكومة بعد صدور عشرة أعداد، وقد كان يحرر وحده كل الجريدة كغيره من رواد النهضة ("أديـب إسـحاق" و"فـرح أنطون"...).

رغم هذه المعاناة لم يستطع التوقف عن الكتابة للصحافة، فعاد ليسهم في كتابة المقالات في الصحف والمجلات"القاهرة" و"نور الإسلام" بالإضافة إلى "المؤيـد"(١٨٩٩) و"المقطـم" و"المنار" (١٩٠٠) .

يمكن المرء أن يلاحظ أن الكواكبي كتب في الصـحيفتين الأخيرتين مقالات ودراسات أعدها سلفا لتكون فصولا مـن كتابه "طبائع الاستبداد" أما أن تصبح هذه المقالات فصـولا لكتاب "أم القرى" كما يرى الباحث "جان دايه"(١) فهذا ما لا يمكن أن نقبله، إذ من المعروف أن كتاب "أم القرى" ظهـر عام (١٨٩٨) قبل أن يكتب في صحيفتي "المؤيد" و"المنـار" بل يقال أنه كتبه في حلب، وهربه معه إلى مصـر ليطبعـه فيها، إذ اطّلع عليه هناك صديقه المؤرخ (كامل الغزي).

ولم يكتف بالمشاركة في الكتابة لهذه الصحف والمجلات، بل نجده قد أصدر في القاهرة صحيفة العرب (١٩٠٠) التي أوقفها الخديوي عباس، بعد صدور ثلاثـة أعـداد، دون أن ندري المبرر السياسي لإيقاف هذه الصحيفة من قبله، مع أن القاهرة كانت عمليا خارج سلطة عبد الحميد، يضـاف إلـى ذلك كان الخديوي على علاقة جيدة مع الكواكبي(٢).

قد يكون للعلاقة التي بدأت بالتحسن بين الخديوي وبين السلطنة العثمانية أثر في إغلاق هذه الصحيفة، كذلك يمكننا القول بأن الأفكار الجريئة والأصيلة التي يطرحها الكواكبي عبر مقالاته من شأنها أن تقلق أي حاكم!

لِم لجأ الكواكبي للكتابة الصحفية:

نلاحظ إصرار الكواكبي على الكتابة الصحفية، سواء في صحف الآخرين أم في صحف يملكها ويديرها ويحررها بنفسه، لكن ما يثير الدهشة ذلك الإصرار على إصدار صحيفة خاصة به، رغم الخسائر المادية والمعنوية التي لحقت به، هل السبب يكمن في الإصرار على الحرية في التعبير والاستقلالية في الرأي؟ خاصة أن الكتابة بدت للكواكبي رسالة تنويرية، بل كانت على ما يبدو فعل وجود ووعي وتحرر، ليس فقط على صعيد الذات وإنما على صعيد الجماعة أيضا، إذ عن طريق الكتابة تتم ممارسة النقد التنويري الذي كان الشغل الشاغل له، فهذا النقد كما يعرفه علي حرب، **"ليس مجرد مواجهة للسلطة بقول الحقيقة بقدر ما هو يقظة من السبات أو مغادرة لحال العجز والهامشية، على النحو الذي يتيح للمرء أن يتغير عما هو عليه، فكرا**

ومؤسسة، معرفة وسلطة، خطابا وممارسة، النقـد بهـذا المعنى هو امتلاك إمكانيات جديدة للحياة والوجود، سـواء على مستوى القول والتفكيـر، أو علـى مسـتوى الفعـل والتدبير"(٣) وعبر هذا النقد يسـتطيع المثقـف أن يحـس بفاعليته، ويمارس التأثير في وعـي النـاس، ولا شـك أن الصحافة كانت إحدى أهم الوسائل التي بدأت تظهر فعاليتها، فكان رواد النهضة أول من اندفع للكتابة فيها، فهي أهم صلة بين المثقف وبين الناس.

وقد وجدناه في افتتاحية العدد الأول من الشهباء (١٨٧٧) يحدد الدافع الذي يكمن وراء إصدار الصحيفة "بادرنا متّكلين على عنايته تعالى لإيجاد هذه الجريـدة العربيـة والجريـدة الأدبية الموضوعة لنشر الحوادث السياسية والوقائع المحلية، مع تحليتها أحيانا ببعض جمل سياسية ونبذ علميـة وأدبيـة وغير ذلك من الأبحاث والمقالات المفيـدة لاتسـاع دائـرة المعارف العمومية، واكتساب الآداب المدنية، وكشف أسرار الأمور، وتنبيه أفكار الجمهور، ومساعدة الدولة على انتظـام حركات السياسة المحلية وصيانة الحقوق من الشطط..."(٤).

لعل من الدوافع الخفية لتقديم هذه الصحف التأكيد على الهوية العربية في زمن كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية، لذلك يبين لنا الكواكبي أن هوية هذه الجريدة هي هوية عربية ذات ملامح سياسية وأدبية.

إذاً يقف الدافع الإصلاحي إلى جانب الدافع الداخلي الذي يكمن في أعماق الكواكبي، والذي يحدثنا عنه صراحة في افتتاحية العدد الأول، إنه "الحمية العربية والغيرة الوطنية على إيجاد أثر حميد في وطننا السعيد الذي طالما رأيناه محتاجا للسان يترجم عنه وإليه، ويخاص له النصح فيما له وفيما عليه".

نلحظ هنا أن الانتماء للعروبة وإعلاء كلمتها نوع من الإحساس بالخصوصية، كما هو دليل على الرغبة في نهضة الأمة التي طال عهدها بالضعف، كل ذلك نستطيع أن نعده دافعا حقيقيا وراء إصدار الصحيفة، فقد لمس حاجة أمته إلى لسان حال يترجم همومها ويفضح ظالميها، فيخاص لها النصح، ويوجه لها النقد البناء، خاصة بعد أن لاحظ العوام، في كثير من الأحيان، يرفضون الأفكار الإصلاحية، كما لاحظ جهل بعض المسؤولين بالقوانين الإصلاحية والنظم

الجديدة، فأراد توضيحها لهم ليرسخ وجودها فـي الأذهـان، وبذلك يوسع أفق العوام ومعارفهم، ويسـهم فـي إصـلاح المسؤولين، وهو يصرح بأن هذا العمل لن يستطيع فرد القيام به وحده، لذلك يحتاج إلى غيرة الواعين من أبنـاء الـوطن وحميتهم على إخوانهم ووطنهم، فيـدعوهم إلـى مـد يـد المساعدة لهم ليستطيعوا الإسهام بعملية تطوير الوطن، وبذلك يؤسس للصحافة الملتزمة التي تعتمد على جهـد جمـاعي، وعلى وعي غيور ناقد ونية مخلصة تعمل على نهضة الأمة.

بناء على ذلك نجد محتويات صحفه ثقافية سياسية، فهـي تهجس بالهم العام إلى جانب تقديم المعرفة العلمية والأدبيـة، فإذا كنا لا نستطيع القول بأن الغايـة الأدبيـة هـي الـدافع الأساسي لإصدار هذه الجريدة فإن بإمكاننا أن نلمس الغايـة التثقيفية لعامة الناس عن طريق المعرفة التي تقوم على العلم والأدب معا، وهو بذلك يبدو واعيا لدور الصحافة في تقـديم الأسرار للجمهور التي تكون عادة بعيدة عن متناوله، عندئـذ تستطيع الصحافة ممارسة دورها في إيقاظ الأفكار وتوجيـه عامة الناس للدفاع عن حقوقها، وفي الوقت نفسـه تسـاعد الدولة على تفهم الحركات السياسية المحلية بتقـديم وجهـة

نظرها، كما تساعدها على ممارسة العدل بين رعاياها، وذلك بصيانة حقوق العامة فتبتعد عن الظلم، وبذلك نجده يبغي من إصدار صحيفته إصلاح عامة الناس عن طريق بثّ المعرفة، وإصلاح السلطة الحاكمة خاصة حين تحس بأن هناك سلطة تراقبها هي سلطة الصحافة التي هي الضمير الحي للأمة.

الخطاب الصحفي ولغة الأدب:

لا يستطيع الكواكبي أن يعبر عما يجول بذهنه بعيدا عـن حرارة قلبه، لهذا نفتقد لديه اللغة الصحفية المبتذلة التي تعنى باليومي وتهمل جمال التعبير، حتى في تلك المقالات التي من المتوقع أن يعلو فيها صوت العقل نظرا لحساسية الموضوع، فمثلا بعد توقيف جريدة "الشهباء" إثر صدور العـدد الثـاني منها، نجده يبين لنا في افتتاحية العدد الثالـث (٢٤ تشـرين الثاني_٦ كـانون الأول ١٨٧٧) كيـف اسـتقبلها الأهـالي **بالسرور والابتهاج، غير أنه لا بد أن يوجد بعض أصـحاب غايات من تابع ومتبوع، لا يلائمهم انتشار المعارف، فمثـل هؤلاء (والمعنى الأفلون) ربما كانوا وجلين غير ممنـونين من هذا المشروع ...عثروا فيه على ما تأولوه بذلة!**

يلفت نظرنا هذا الانسجام بين الفكـرة وطريقـة التعبيـر عنها، فهو يصف لنا أولئك الذين حاربوا جريدتـه، أسـاؤوا إليها حين قدموا بعض التفسيرات التي تـدلّ علـى ضـعة نفوسهم، فهم لا يتمتعون بالحرية التي تجعل الإنسان يحسـن الظن بالآخرين ويتسع صدره لهم، لذلك قدموا تفسـيرات لا تصدر إلا عن عبيد أذلاء، وقد كان لاقتران **التأويـل** الـذي يقومون به لأفكار الكواكبي **بصفة الذلة التي تقترن بالنفوس عادة لا بالكلمات،** مصدر جمال تعبيري وتصـويري معـا، خاصة أنه قد أشار إلى أن هؤلاء عبيد تابعون لغيرهم.

إذاً هناك فساد في أخلاق الرجال، مما يساعد في طغيـان الاستبداد، هذا ما يشير إليه في افتتاحية العدد السادس (١٥_٢٧ كانون الأول ١٨٧٧) فكثيرا "**ما نتصفح ألوفا من القوم فلا نجد ثقة كاملة في أنفسنا لأحد منهم، لأننا نرى العفيـف وليس فيه حمية، وذو الحمية لا يعرف النظام، والعارف به لا نشاط فيه، وهكذا لا نجد إلا من هو فحل مـن جهـة أو جهتين... فنلتزم إلى اختيار الأخف ضررا على أن السياسة لا تقبل المسامحة مطلقا ومتى اختـل فيهـا ركـن فقـدت الانتظام**"

إنه يختار عبارة أدبية (نتصفح ألوفا...) عوضا عـن أن يستخدم عبارة عادية (ننظر إلى أخلاق القوم) ومثـل هـذا الفعل (نتصفح) يوحي لنا بالرؤية الشاملة السـريعة، التـي تجعله يصل إلى نتيجة توحي بفساد الأخلاق ليس لدى عامة الناس فقط وإنما لدى النخبة التي تتولى الأمور لدى السلطان، مما ينعكس سلبا على الحياة السياسية، فيؤدي إلى الانهيـار والتخاف، وبذلك تصبح السياسة رجلا تكونه عـدة عوامـل أصيلة، لا يصح فيها أي تنازل أخلاقي أو تسامح!

وفي هذه الافتتاحية ذاتها يتحدث الكـواكبي عـن أحـد الأمراض التي تتغل في جسد الأمة، وهو مرض التعصـب الديني والمذهبي، فيقارن بين المسـلمين فـي ظـل الدولـة العثمانية والمسلمين الفاتحين في العهد الأول للإسلام الـذين **"دخلوا هذه البلاد وفتحوا أكثرها بسـيف جاذبيـة العدالـة ومكارم الشيم، ولما فسدت أخـلاق أخلافهـم مـن حيـث تشويش وجه حقيقة التصلب فـي الـدين بعاهـة تشـديد التعصب له، صادفت بلادنا شرور الحروب الصليبية التي لا زلنا نشاهد آثار أضرارها سياسيا وأدبيا، وربما يظن أننـا ننسب عاهة التعصب لإسلام ذلك العصـر دون مسـيحييه،**

فنقـول:كـلا، بـل كانـت النصـارى أشـد تعصـبا مـن الإسلام...

يلفت نظرنا صورة الفتح الإسلامي الذي لم يـتم بسـيف عادي، وإنما بسيف العدالة والقيم النبيلة، التي مـن أهمهـا الانفتاح على الآخر ونبذ التعصب، ويحاول الكواكبي أن يبين كيف كان المسلمون غير أمناء على روح ديـنهم، فقـد تـم تشويه الوجه الحقيقي له، فلم يجد لفظة تجسد هـذا التشـويه سوى "**العاهة**" التي أساءت لجوهر الدين كما أساءت لعلاقـة المسلمين مع غيرهم، وهو ينبه إلى أن هذه العاهة لم تصـب المسلمين فقط وإنما أصابت المسيحيين أيضا، وقد نوع فـي أسلوبه فلم يكتف بسرد الوقائع وإنما نجده يلجأ إلى العرض، وقد أضفى الحوار جوا من الحيوية والواقعية على مقالته.

لا ننسى الدور الكبير الذي أداه الكواكبي وغيره من رواد النهضة الذين كتبوا في الصحافة، فقد استطاعت اللغة العربية أن تتخلى عن جمودها بفضل جهوده التأليفية والصحفية، لـو تأملنا لغة افتتاحية العدد الأول (٢٨ نيسان_١٠ أيار ١٨٧٧) للاحظنا كيف نهضت اللغة العربية على يديه مـن حالتهـا السكونية القاموسية، فأصبحت لغة الحيـاة، سـنتأمل فقـط

جماليات الافتتاحية التي كانت تكتسي عادة، في زمنه، ألفاظا تقليدية أقرب إلى الجمود، مما يودع اللغة في قالب مكرر تكاد لا تبارحه، يقول الكواكبي "**حمدا لمن أحاط علما بكل ماض وآت، وقص لعباده أنباء الأمم بالآيات البينات، ليتدبروا حكمته في تغيير الأحوال وتدبير الكائنات، والصلاة والسلام على جميع أنبيائه الباذلين نفوسهم في سبيل إرشاد المخلوقات، وبعد فكلما نظرنا إلى ما حررته يد العناية على جهة هذا الزمن ومكنت أهله من اقتطاف المعارف في كل وطن، تسرنا هذه الترقيات التي بلّغت أبناء العصر ذروة النجاح، وسلكت بهم سبل الهدى والفلاح**..."

للوهلة الأولى نجد الكواكبي أنه لم يبرح الأسلوب الشائع في عصره، لكن حين نتأمل تراكيب جمله نلاحظ أنها تحتوي على تراكيب إرشادية، تتخذ من الحكمة الإلهية وسيرة الأنبياء مثلا أعلى في نشر رسالة الإيمان والصلاح، التي هي في حقيقتها رسالة تطوير وتغيير وعدم الركون إلى ما هو سائد.

وقد بدا لنا الكواكبي هنا أمينا للتراكيب التقليدية، لكنه كان مهتما بأن يلبس هذه التراكيب روحا جديدة هي روح التغيير

واستخدام العقل، لهذا جعل سيرة الأنبياء الذين هم قدوة لنـا، إذ يجسدون لنا سيرة المصلحين الذين يلجؤون إلى التـدبير والتفكر، لذلك يجعل سيرتهم تلك أول ما يفتتح به العدد الأول من جريدته.

إن علاقة الأدب بالصحافة بدت ضرورة للكاتـب، لـيس فقط من أجل تعبير أكثر حيوية وجاذبية، وإنمـا مـن أجـل تجاوز ضغط الرقابة أيضا، لما يتيحه استخدام أسلوب الهزل والتلميح والرمز من إمكانات تعبيرية حرة، إذ يبتعد الكاتـب بفضلها عن التصريح ويكتفي بالتلميح، وبذلك يتجاوز قيـود الرقابة الصارمة، وقد بدا لنا الكواكبي واعيا لهذه الأهميـة، فها هو ذا يصرح في افتتاحية العدد الثالث من "الشهباء" "**أكثر ما يقع من مشتقات الاجتهاد أمام سهام الاضطهاد، وكـان أكثر ما يقع ذلك في أوائل انتشارها في المملكة أو البلـدة، فكان من قدر على الثبات وتحمل العناء، ومنهم من أجبرته ظروفه للخوض فـي الرقـراق، وتجنـب المخـاطرة فـي الأعماق، ومنهم من تباعد عن مصارع الانتقام باسـتعمال الحكمة في إفادة المرام، وذلك بنحو تخريج الحقائق علـى**

قوالب الهزل...فصاروا يطلعون القارئ على مـا يرومـون بنحو التلميح والكناية والرمز والإشارة..."

إذاً الصحافة مهنة المتاعب للمخلصين غير المتملقين، فأي اجتهاد وإعمال للعقل فيها، لابد أن يوجه المستبد إليه سـهام الاضطهاد، لذلك كان الصحفيون أنواعا، فمنهم مـن يواجـه بثبات، ويدفع ثمن قول الحقيقة، متلقيا العقاب بعنـاد، ونجـد منهم من يخاف المواجهة تكبله ظروفه القاسية، لذلك يشـبه الكواكبي هذين النوعين من الكتاب بنوعين مـن السـباحين الأول يخاف عواقب الغوص فيبقى علـى السـطح الرقيـق للماء، والثاني جريء يغوص في الأعمـاق دون خـوف، وهكذا بدا التعبير الأدبي، هنا، خير معين للكواكبي على تقديم أفكاره، فبدا الانسجام واضحا بين الرؤية الفكريـة والرؤيـة الجمالية.

تأملات في أسلوب المقالـة الصـحفية لـدى الكواكبي:

١_الأسلوب القصصي:

لاحظنا الكواكبي كيف لجأ إلى أسلوب القصة في كتابه "أم القرى" ويبدو لنا أن هذا الأسلوب مكون أساسي من مكونات موهبته الأدبية، لذلك برز أيضـا فـي مقالاتـه الصـحفية، باعتباره أحد الطرق الحيوية التي تسهم في تقـديم أفكـاره، وإضفاء مصداقية الواقع عليها، وهي تفسح أمامـه المجـال لتجسيد أفكار متنوعة ووجهات نظر قد تصل حد التنـاقض حين تقدم معاناة الإنسان من الاستبداد، وبعد ذلك تقدم وجهة نظر المنافقين أنصار الاستبداد، ففي (جريدة العرب) ينطلـق الكواكبي متحدثا بحرية عن المظالم التـي أحـدثها الحكـم العثماني، وذلك على لسان جماعة من الحجيج **"أدوا الفريضة هذه السنة، وسمعوا رجلا هذه السنة في بيت ا وهو أكثر الناس علما وتنسكا يردد دعوة إلـى ا بتمـام التضـرع ولوعة القلب، فبهتوا وكانت دعوته هكـذا لا تتعـدى هـذا المعنى: يا أرحم الراحمين ويا أحكم الحـاكمين أنقـذ هـذه البلاد المقدسة والمقامات المباركة من يد الترك وسلّمها إلى دولة...وديعة.**

[فيقول المنافقون] معاذ ا فهذه دعوة لم يسمع بمثلهـا لا في ذلك المقام بل في أي مكان من عهد السعادة إلـى عهـد

حكومتكم، ولم يخطر ببال إنسان حتى في خياله أنـه يسـمع بمثلها، والرجال الذين يحكون هذه الحكاية لا احتمال في أنهم يكذبون فيما يحكون لغرض من الأغراض"(٥).

ينقل لنا هذا المقال مشهدين، الأول مشهد مؤثر لإنسـان متبتّل في بيت ا الحرام أثناء أدائه فريضة الحج يـدعو ا بحرقة أن يخلصه من ظلم الدولة العثمانية، وأن يبدلّها بدولة أخرى عادلة، أما المشهد الثاني فيعرض لنا جماعة المنافقين وقد اجتمعوا لدى الحاكم المستبد، يكـذّبون قصـة الرجـل المتبتّل، ويمدحون عهد السلطة العثمانية، وتأكيدا على قولهم هذا نجدهم يصفون عهدها بالعهد السعيد ، وأن كل من نقـل هذه الحادثة لابد أن يكون كاذبا، يختلـق حكايـات تسـيء للسلطة من أجل أن ينفذ مآرب شخصية.

قدم الكواكبي في مقالته (عبر هذين المشهدين) صـورتين متناقضتين: الأولى لإنسان متدين يدعو ا أن يخلّصه مـن حكم الدولة المستبدة فيختار لذلك أقـدس مكـان (الكعبـة)، والثانية لإنسان منافق يعايش السلطان مادحا، ويتهم كل مـن يهاجمه بالكذب! فيختار هنا (بلاط السلطان).

وفي المقال نفسه نجده يمعن في تصوير شخصية المنافق، الذي لا يردعه أي وازع ديـنـي أو أخلاقـي، وقـد أشـار الكواكبي إلى مسؤولية هذا المنافق عن تشويه الـدين، لهـذا نجده يعلن شروط الخلافة مستندا إلى ما جـاء فـي الكتـب الإسلامية المعتبرة، واستنبط من أحكام الشـريعة المحمديـة الطاهرة (التي تؤكد أن الخليفة عربي من قـريش) حتـى لا يبقى لحاذق لا يخشى ا رب العالمين أن يهرف بما يشاء... ليرضى من يعبده، ويأخذ دنانيره من الظلمة الطغاة، ويمـوه على البسطاء من الناس بما يهواه معبـوده مـن الأكاذيـب والأضاليل التي تنصرها البراطيل."

تمتلك شخصية المنافق، جليس السلطان، صـفات سـلبية تدمر الدين والحكم السليم، فهي تناصر الاستبداد، بعبوديتهـا له، وبرفض أحكام الشريعة وتزويرها، فتجسد لنـا سـمات الشخصية المرتزقة، تسعى وراء المال بأية وسيلة، دون أي رادع ديني أو أخلاقي، لذلك ليس مستغربا أن تحرف الـدين من أجل السلطان، وتكذّب على العوام بما يحقق لها مكاسب مادية تفوز بها من المستبد، الذي يصبح إلهها المعبود، تنشر

عنه الأكاذيب وتقوم بكل الموبقات، كل ذلك من أجل أن تفوز بذهبه.

ونجد وصفا دقيقا لشخصية الوالي الفاسد وأثر بيئة حلب على فساده في مقال آخر (في "النحلة" ١نيسان ١٨٧٩) وهو هنا لا ينقل لنا الصفات بشكل محايد، بل يحاول أن ينقل معها الرأي العام السائد بين الناس حين يأتيهم مأمور جديد، وقد رأوا منه تعففا فنجدهم يقولون: إنه الآن على فطرته لكن سيشرب ماء حلب، يعنون أن شربها يغير طبيعة الإنسان ... كثيرا من الولاة الذين اشتهروا بالعفة والشهامة جاؤوا إلى حلب وفسدوا بعد برهة وتكني العامة عن ذلك بأنه نزل الميدان أو سحب رجله لبطلان عزته، ومن جملة أولئك الولاة والينا الآن ذي الدولة كامل باشا الذي كان متصرفا في بيروت تسع سنين والتزم طريق العفة والاستقامة فيها، كما هو مشهور غير أنه لما جاء إلى حلب وبعد نحو نصف عام تمكن ماؤها من أضلاعه، ونزل الميدان، وسبق الأخوان، لأنه ذو معارف ودراية، يعرف كيف يستنزف القطر ويستدر الضرع، ولعل من يعرفه في بيروت أو غيرها يستغرب ذلك عنه، فيقول لا غرابة فإن الرشوة من الدواعي

الطبيعية في حلب، حتى لو جاهد المأمور تعففا لقـام عليـه جمهور رفقائه وعزلوه، وبناء عليه لو جاءنا سليمان بن داود لما رأيناه بعد حين إلا وهو من المنقلبين"(٦).

إن الشخصية هنا تبدو ذات ملامح عامة، لكـن عناصـر التخييل أضفت عليها الحيوية والطرافة، إذ نجد تناغما بينهـا وبين الطبيعة، فإذا كانت الطبيعة في حلب قد عراها الفسـاد حتى استشرى فيها بين الناس، لذلك لن يكون غريبا سـريان هذا الفساد في دماء الولاة سريان الماء في الجسـد، ولعـل مقولة العامة "نزل الميدان" و"سحب رجله" دليل على شـيوع الفساد حتى ملأ جميع الأمكنة ووصل الساحات العامة، فـأي والٍ جديد لابد أن يمر عليها، ويسحب رجله إلى الفساد، ولا يكتفي والي حلب بأن ينـزل الميدان كغيره، بل نجده يسـبق إخوانه في الفساد، نلاحظ هنا أن هذه المقولات الشعبية ("نزل الميدان" و"سحب رجله") زادت من تألق المقالة وحيويتهـا، كما وضحت ملامح الشخصية بشكل أفضل، فاسـتطاعت أن تنقلها من التعميم (ولاة) إلى التشخيص (كامل باشا) مما يتيح لنا التعرف على ماضي الشخصية النظيف (تسع سنوات في بيروت) ثم انهياره في الوقت الحاضر بعد نصف عام مـن

تغلغل مياه حلب في دمه، فسرى إليه ما في طبيعتهـا مـن فساد.

وقد ساعدت اللغة التصـويرية علـى تجسـيد ملامـح الشخصية الفاسدة (تمكّن ماؤها من أضلاعه، بات يستنـزف القطر، ويستدر الضرع) ومما ساعد على جمـال التصـوير استخدام الأفعال المشددة التي توحي لنا دلالتها بشدة النهـب والأذى الذي تعرض له الناس بسبب هذا الوالي!

يلفت نظرنا الربط بين الشخصية والمكان، حتى إنه جعل الفساد جزءا من مكونات المكان تسري صـفاته فـي دمـاء ساكنيه، فإن حاول أحد الولاة الغرباء التعفف، أي الشذوذ عن غيره، قام الأهالي من الأغنياء بمحاربته، لذلك عم الفسـاد، ولم يستطع أحد الامتناع عن النـزول إلى ساحته.

وكي تتضح معالم الصورة التي يريد رسمها للفساد الذي هو مرادف للاستبداد في رأي الكواكبي، يتوقف عند الأهالي الذين تمكّن الفساد فيهم كما تمكّن في طبيعة بلادهم، فيصـف خلودهم للخمول وتعودهم أن لا يطالبوا بحقّ، ومما يتمثلـون به في تهوين ذلك على نفوسهم وتسفيه آراء الأنفة والشهامة قولهم "أتلاكم البيضة حجرا" وقولهم "إنما السلام في مسـالمة

الحكام" وقولهم "إذا أردت الأمر أن يمشي ارشِ ثم ارشِ ثـم ارشِ" ومنهم من يعتذر عن المأمورين في الرشوة بقـولهم: "من له فم لابد أن يأكل" ومنهم يرون أن "ليس من المـروءة أن لا يعطى المأمور تعبه" ومن قبيل ذلك قـولهم "لا تؤكـل العشرة حتى تطعم التسعة" وبناء عليه فإذا كان الأهالي قـد ألفوا الذل والرشوة إلى هذه الدرجة فلا يبقى حاجـة لبيـان مقدار استبداد المأمورين"(٧).

لعل ما يشكل لقاء بين أسلوب القصة وأسلوب الصـحافة هو استخدام لغة الحياة اليومية، خاصة تلك التي تقـدم لنـا نبض الحياة وصورة الإنسان، وهو يواجه الواقع أو يزيفه أو يستسلم له، وقد لاحظنا، قبل قليل، كيف اجتمعـت الملامـح الخاصة بملامح عامة لشخصية الوالي اللاهث وراء الفساد، حين جسده لنا عبر أفعال تخصه دون غيره، خاصـة تلـك الشدة والمبالغة في استنـزاف الناس ونهـبهم، لكننـا نجـد الكواكبي، في هذا المقال، يقدم لنا الشخصية العامة للأهـالي متجسدة عبر لغة الجماعة التي تصب الناس في قالب واحد، يقف في مقابل الوالي المستبد، لا لينازعه ويواجه اسـتبداده، كما يتبادر للذهن، بل ليشجعه على تصرفاته! ويبرر سـلوكه

المنحرف! لذلك بدت شخصية العامة ذات صفات سلبية: الكسل والرضوخ... إنهم يعيشون أوهاما تتحول إلى ما يشبه المقولات الشعبية المغلوطة التي تقلب حقائق الحياة، وتبرر الضعف الذي يرونه قدرا لهم، فهم ضعفاء لا يستطيعون مواجهة الحاكم القوي، كما لا تقوى البيضة الضعيفة على مواجهة الحجر! كما تشيع بينهم مقولات تدعو إلى مسالمة المستبد، كي يأمنوا حياتهم، لأن أية مواجهة للمستبد تعني موتا مؤكدا!

لا يقدم لنا الكواكبي وجهة النظر الجماعية التي تدافع عن ذلّ العامة وضعفها فقط، وإنما يتخيل حالة أخرى، تفاجئ المتلقي وتثير عجبه، إذ يقدم دفاع العامة عن فساد الوالي عبر منطق فاسد يقول: لتسيير الأمور لابد من الرشوة! فهي مفتاح أي عمل في ظل الانهيار الأخلاقي، لذلك تتحول رشوة الوالي إلى حق له تؤديه العامة نظير جهده!

وهو يهدف من تجسيد هذا المنطق المنحرف إلى إبراز أن هذا الخلل الأخلاقي الذي تعاني منه العامة قد أدى إلى خلل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذلك ليس غريبا أن نفتقد المروءة والشهامة لدى الشخصية (بالمعنى العام

والخاص) كما نفتقد النـزاهة والعدل لدى الـوالي، إذ ثمـة تلازم بين فساد الحاكم والمحكوم!

قد يظن البعض أن الكواكبي عبر تجسيده فسـاد البيئـة وأثرها على عامة الناس، ثم التوقف عند وجهة نظرها فـي الفساد ودفاعها عنه، أنه يريد بذلك أن يشيع اليأس والإحباط لدى المتلقي، لكن هذا الظن يدحضه إصرار الكواكبي علـى الإصلاح، وبث روح الرفض والنهضة عبر تشخيص الحالة وإبراز تدهورها، من أجل أن يسـتفز الهمـم لتغييـر هـذا البؤس!! وقد كانت الكتابة الصحفية أحد جوانـب الإصـلاح لديه، لذلك استعان بأساليب تعتمد تجسيد الصـورة القبيحـة للحاكم والمحكوم، ليس فقط من أجل التشويق وإنما من أجل تقديم صورة منفرة لحالة الذلّ والاستكانة التي تنتاب العامة، تؤدي بها إلى فساد التصورات والمنطق!! فتدمر أي أمل في تغيير الأحوال، وبذلك يسعى إلى تحريض العامة على رفض واقعهم، والعمل على تغيير حياتهم البائسة.

والكواكبي في مقالاته الصحفية، كما في كتبه، لا ييـأس من إصلاح العامة التي تعاني من "الوهم وفساد التصـورات" لذلك يدعو المصلح في كتاباته إلى تفهم العامة و"مجـاراتهم

أول الأمر على أفكارهم، فيبثّ فيهم نصائحه بصورة مترددة، حتى إذا أدركوها انجذبوا إليها...إن إقناع العامة بما يخـالف مشاربهم المألوفة لهم أمر لا يخلو من صعوبة لكـن لا بـد للعاقل إذا كان في قافلة لا غنى له عن مرافقتها، ورآها تاهت عن الطريق من أن يرشدهم إلى الطريـق المؤديـة لنجاتـه ونجاتهم جميعا، ولو تكلف في اقتناعهم هضيمة نبـذ آرائـه وهزئهم بها في أول الأمر..."(٨)

يلفت نظرنا هذا التشبيه الدقيق والحيوي لحال المصلح مع قومه، الذي يربط حياتهم بحياته، فهو ملزم بإنقاذهم كي ينقذ حياته، إنه يسير معهم في قافلة واحدة (هي الحياة) لا يمكـن له الاستغناء عن رفقتهم، لذلك عليه أن يحاول أن يرشـدهم إلى الطريق الصحيح، أي يحاول إنقاذهم من أوهامهم وفساد أفكارهم التي تنعكس على أخلاقهم وتصرفاتهم، ومثل هـذه المهمة لن تكون سهلة، سيواجه بالنبذ والسخرية في البدايـة لكن إصراره على إنقـاذ قومـه، عبـر مسـايرتهم أحيانـا وتوجيههم أحيانا أخرى لابد أن يؤثر فيهم.

هذه الصورة السلبية لشخصية العامة لن تكون سمة عامة في مقالات الكواكبي، فقد قدم معاناة الفلاحين وكفاحهم الذين

كانوا يستلمون الأرض البـور ويقومـون بإحيائهـا عمـلا بالحديث الشريف "من أحيا مواتا فهو لـ ـه" فكانـت تلـك الأراضي تحتاج إلى بذل أتعاب ونفقات جسيمة، لم يتوصلوا إلى القيام بها إلا بصرف جميع ما تملك أيديهم وأكثر إلى أن ابتدؤوا الآن باستغلال بعض محصولات تلك الأراضي التي عجنت بدموعهم وسقيت دماء قلوبهم." لذلك يبـدو اسـتيلاء الولاة على الأرض بعد إحيائها، وعلى ثمرة تعب الفلاحـين يعد من أشنع الأفعال! خاصة أن هؤلاء الولاة يخالفون بذلك ما أمرهم به رسول ا صلوات ا عليه وسلامه في الحديث الشريف الذي ذكره الكواكبي (من أحيا مواتا فهو له) وبذلك يلجأ في مقالاته إلى توظيف ثقافته الإسـلامية إلـى جانـب موهبته الأدبية، لذلك يبدو لنا الخطاب الصحفي لديه خطابـا مؤثرا.

ويمكن أن يلاحظ المتتبع ملامح أخرى للقصة في مقالاته مثل مقدرته على تقديم أعماق النفس البشرية، فيظهـر ذلـك بالتغلغل إلى كوامن الشخصية ومعرفة طبيعتها، فنجده يقول في جريدة الشهباء العدد الخامس (١٨٧٧) "إذا تتبعنا تقلـب الهيئة الاجتماعية بحلب منذ سقوط الدولة السـلجوقية إلـى

الآن، يظهر لنا أنها لم تصادف سياسة حسنة إلا فـي عهـد قريب، فنستنتج أساسا لما نشاهده_بكل أسف_ من اسـتيلاء الفساد على الفكر العام فيها فيما يتعلق بأمر السياسة، ذلك من حيث أن مرور هذه القرون الأربعة، وهم فـي ضـيم تلـك السياسة المطلقة العنان جعلهم يألفون أمورا كثيـرة مضـرة وبالتمادي صارت طباعا لهم يركنـون إليهـا، ويحـافظون عليها...ولا يخفى أن إصلاح الفكر العام دونـه صـعوبات كثيرة، لأن العامة تأبى من يخالف ما تقـرر عنـدها، فـلا يصغي التائه إلى نصيحة المرشد إلا بتكلف."

يلفت نظرنا هذه الحساسية التي ترافق المعرفة بما يجول في أعماق العامة، زمن الفساد، إنهم لا يعلنون رفضـهم لـه بسبب إلفتهم له، فالإنسان يركن مع الزمن للشـاذ والفاسـد بحكم الإلفة، لذلك لم يعد التمادي بالاستبداد يقابل بالنفور، إذ أصبح الضعف والركود جزءا من التكوين النفسـي للعامـة، وعادة يومية تسري في دماء العامة، وهنا نجـد الكـواكبي يبحث عن صفة تليق بكل إنسان يألف طبعه الاسـتبداد فـلا يجد سوى هذه الصفة الموحية (التائه) ولا شـك أن معظـم العوام يستحقون هذا الوصف، إذ ليس سهلا إقناعهم بتغييـر

أفكارهم وسلوكهم أي تجاوز ضياعهم! وردهم إلـى جـادة الصواب!

يلفت نظرنا هنا قوله: "لم نصادف سياسة حسنة إلا فـي عهد قريب" لا شك أن هذه الجملة تعـد نوعـا مـن اللغـة التصالحية مع السلطة المستبدة، التي اضطر إليها الكـواكبي كي تسمح له نشر لغته الثائرة والمحرضة، فتسهم أفكاره في مقاومة الاستبداد وإيقاظ العامة من سباتهم ونزع فتيل إلفـتهم للاستبداد.

٢_الكواكبي مؤرخا وأديبا في صحافته:

يحاول في مقالاته الصحفية أن يـؤرخ لأحـداث هامـة، أسهمت في بناء الدولة العثمانية، ومما يلاحظ أن الكواكبي لا يقدم الحدث التاريخي بمعزل عن النظرة الناقدة، ولعل مـا يؤكد أصالة موهبته الأدبية أننا لا نجد هذه النظرة بلغة جافة، تسيطر عادة على المؤرخ الناقد! وإنما نجد المقالة التاريخية تقدم بلغة أدبية تعتمد التشبيه الفنـي الـذي يغنـي الفكـرة، ويمنحها حرية التعبير، فمثلا في مقالته الافتتاحية في العـدد الرابع من جريدة "الشهباء" وجدناه يتحدث عن أخطاء الدولة العثمانية التاريخية وذلك حين اتجهت إلى الدول الغربية فـي

فتوحاتها، ونسيت الدول الشرقية، فيقول: "**إن الأقدار حكمـت على الدولة العلية بأن تصرف ثلاثماية سنة استغرقت أيـام صبوتها وشبابها في فتوحات لم تجدها نفعا قدر ما جلبتـه عليها من أتعاب المحافظـة عليهـا فـي أيـام الكهولـة والشيخوخة...لو فرض معترض يقول: كيف الشهباء تصف الأمم بالصبوة والشباب والكهولة والشيخوخة؟ نقول: نعـم إن لكل دولة فرصة وهي أيام صبوتها وصولة هـي أيـام شبابها، ورسوخا هي أيام كهولتها وانحطاطا وهـي أيـام شيخوختها، وما بعد ذلـك إلا المهالـك... (هنـاك) دولـة استعملت أيام فرصتها في التأهل للانتفـاع بقوتهـا...ثـم أعملت صولتها في تشييد أركان عزتها، ثم تفرغت في أيام رسوخها لمعاناة حفظ صحتها على وجه الحكمـة، طالـت حياتها وعادت لها نشأتها الأولى، وربما تكرر ذلك مرتين، لكن لابد أن تكون غايته إلى الزوال، ويجب عليها حينئذ ما يجب على التاجر إذا شاخ."(٩)**

يتأمل هنا الكواكبي في تاريخ الدولـة العثمانيـة، وفـي أخطائها التاريخية التي ارتكبتها، فلا يجد وسـيلة تعبيريـة تجسد هذه الأخطاء وتبين فداحتها سوى تشبيه حالة الدولـة

بحالة الإنسان الذي يمر بمحطات مصيرية في حياته تتلخص في (الشباب والكهولة والشيخوخة) فإذا اغتنم أوقات شبابه وكهولته استطاع أن يؤسس حياته على أسس متينة عزيزة، يضمن بها شيخوخته، وهو يبين أن الشباب (سواء أكان شباب الإنسان أم الأمة) يجب أن يعني مرحلة العمل الجاد الذي يؤسس فيها المرء لمراحل حياته التالية، ثم تأتي مرحلة الكهولة التي ترسخ ما سبقها من جهد وتضفي عليه الصحة والحكمة، فإذا ضاعت هاتان المرحلتان جلبت الضياع للمرحلة الأخيرة (الشيخوخة) وهذا ما حصل للدولة العثمانية التي أفسدت شبابها وكهولتها، حين أخطأت العمل واتجهت بالفتح نحو الدول الغربية، مهملة شأن الدول الشرقية، فضيعت قوتها وشبابها في هدر قوتها، لذلك يدعوها الكواكبي، عن طريق التشبيه الذي يتيح له التلميح بما يريد، لذلك يدعوها أن تفعل ما يفعله التاجر إذا شاخ! أي أن تترك الحكم بعد أن بلغت مرحلة الشيخوخة العاجزة.

للوهلة الأولى يبدو لنا هنا الكواكبي متأثرا بمقولة ابن خلدون في مقدمته بأن "الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر

الوسط...الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشـونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشـتراك في المجد، فلا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم، فحـدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون، والجيل الثاني تحـول حـالهم بالملـك والترفّـه مـن البـداوة إلـى الحضارة...فتكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهم الكثير من ذلك بمـا أدركـوا الجيل الأول وباشروا أحـوالهم وشـاهدوا مـن اعتـزازهم وسعيهم إلى المجد ومراميهم المدافعة والحماية، فلا يسـعهم ترك ذلك بالكلية وإن ذهب منه ما ذهب، ويكونـون علـى رجاء من مراجعة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية...فهذه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلّفها"(١٠) .

قد يكون الكواكبي قد تأثر بفكرة تقسيم حياة الدولة، كمـا تقسم حياة الأجيال، لكنه بدا لنا في تشبيهه لحياة الدولة بحياة الإنسان لا حياة الأجيال، قد تجاوز مرحلة التـأثر الحرفـي، الذي يعني قصورا في المخيلة والفكر، إلـى تشـبيه يحمـل

سمات خاصة به، إذ لم نجده يستخدم فكرة العصبية وعلاقتها بمرحلة البداوة، وهي الفكرة الأساسية لدى ابن خلدون، بـل نجده يقرن حياة الدولة بمراحل حياة الإنسان، فتوقـف عنـد مرحلة العمل والعطاء التي هي مرحلة الشباب ثـم مرحلـة الكهولة أي رسوخ لكل ما فعله في المرحلة السابقة، في حين وجدنا مع بداية الجيل الثاني لدى ابن خلدون تبـدأ مرحلـة الانهيار بفقدان العصبية، ثم تأتي مرحلة الشيخوخة التي تعني انهيار العصبية بشكل نهائي لديه، في حين قد لا تعني هـذا الانهيار لدى الكواكبي فيما لو أحسن الإنسـان (الـذي هـو المعادل الفني للدولة) استغلال مرحلـة الشـباب والكهولـة، فتطول حياته دون أن تهان كرامته.

إذاً يرى المؤرخ الكواكبي أن بقاء أية دولة لابد أن يقترن بمدى الجد والعمل اللذين تتميز بهما، شرط أن يكـون هـذا العمل في الاتجاه الصحيح، يعتمد المنطق والتفكر، في حـين يرى ابن خلدون في العصبية الـدافع الأول للحفـاظ علـى الدولة.

٣_ المقالة وأسلوب الرسالة:

يبدو لنا تطور أسلوب المقالة الصحفية لـدى الكـواكبي واضحا مع مرور الزمن وتزايد الخبرة، فقد لجأ إلـى كافـة الوسائل التي تقرب مقالته من قلوب القراء، وتتيح له حريـة التعبير، فيتخاص من كبت السلطان ومصادرته لفكره، وقـد لاحظنا أن جرأة الكواكبي زادت في الصحيفة الأخيرة التـي أصدرها في القاهرة (صحيفة العرب) نظرا لبعده عن مركز السلطة، وللحرية التي تتمتع بها الصحافة في مصر.

من تلك الوسائل كان أسلوب الرسالة، حيث وجدنا ثـلاث مقالات تعتمد هذا الأسلوب في عدد واحد ("رسالة الخلافـة" و"خطاب إلى السلطان" و"رد رنان على رسالة تركي") فمثلا بعد أن أعلن السلطان عبد الحميد نفسه خليفة على المسلمين، كتب الكواكبي مقالا بأسلوب الرسالة، وقد بدا متعمـدا لهـذا الأسلوب حتى إنه جعل عنوانه "رسالة الخلافة" كي يشير إلى أهمية الدلالات التي تحتويها، إنها دلالات تمس أسس الحكـم التي تبين بطلان تسمية السلطان عبد الحميد بالخليفة، لـذلك حدد في الافتتاحية هوية المرسل والمرسـل إليـه "**أرسـلها فاضل من العلماء الحكماء لحضرة السلطان عبد الحميد**".

يلفت نظرنا اللغة الصريحة التي تجرؤ على ذكـر اسـم السلطان عبد الحميد، دون أن تكنـي أو ترمـز، وإن كنـا لاحظنا إغفال اسم المرسل والتركيز على ذكر صفاته فقـط (عالم، فاضل، حكيم) للدلالة على أهمية ما يقوله، إذ لا ينطق عن هوى، بل ينطق نتيجة علم وحكمة وفضل، لذلك لا يمكن أن تهمل رسالته، التي هي تعريف بالخلافة وشروط الخليفة، وبالتالي بيان بطلان خلافة عبد الحميد، إذ لا يمكن للسلطان أن تنطبق عليه هذه الشروط التي أهمها إجماع العلماء علـى انتماء الخليفة لقريش، وهو يقولها بصراحة في رسالته "**لـو سمعتم جلالتكم شروط الخلافة لاستعظمتم أمرها، واستثقلتم حملها، ولرأيتم أن العبور على صراطها الحاد من أصـعب المصاعب، وأخطر الأخطار وأثقل الأعباء...**"**(١١).**

لا يكتفي الكواكبي بتوجيه الرسالة في افتتاحية المقال إلى السلطان عبد الحميد، بل يعمد إلى استخدام أدوات الخطـاب المباشر مثل تكرار ضمير المخاطب خمس مرات في سطر واحد، ومخاطبته باستخدام الاسم الذي يخاطب بـه الملـوك عادة: جلالتكم، لا بما يخاطب به الخليفة: أمير المؤمنين.

استغل الكواكبي في هذه الرسالة مقدرته اللغوية والفنيـة لإيصال وجهة نظره، ولإقناع السلطان بعظم ما يقترفه مـن إثم، فيما لو أعلن نفسه خليفة، لذلك وجـدناه يسـتخدم هـذه الصورة (لرأيتم أن العبور على صراطها الحاد من أصـعب المصاعب) فقد جعل إعلان الخلافة شـبيها بالسـير علـى صراط حاد سيؤدي إلـى سـقوط السـلطان فـي الهاويـة والضلال، وقد استغل، هنا، دلالات لفظة (صراط) الدينيـة التي توحي بالصراط المستقيم الذي يؤدي إلى طريق من أنعم ا عليهم، وقد تحول عند الكواكبي إلى صراط حاد يـؤدي إلى طريق الضالين الذين غضب ا عليهم!

لنلاحظ أيضا استخدامه للأفعـال ذات الـدلالات القويـة المعبرة عن هذا الإثم (استعظمتم، استثقلتم...) والألفاظ التي تصفه (أصعب، أخطر، أثقل) إنهـا صـفات تصـف الحـد الأقصى من دلالات الخطورة والمصاعب والأعبـاء (لهـذا قدمها بصيغة أفعال التفضيل) .

وظّف الكواكبي كل ثقافته المعرفيـة والدينيـة ومقدرتـه الفنية، كي يستطيع إقناع السلطان بالتراجع عن قراره، إنـه بذلك يستخدم في كتاباته الصحفية سـلطة العـالم وموهبـة

الأديب، كي يحقق غايته ليس فقط في مخاطبة السلطان وإنما في مخاطبة عامة الناس أيضا، ليقنعهم بخطورة الإثم الـذي يرتكبه السلطان.

٤ _ المقالة وأسلوب البحث العلمي:

لاحظنا كيف وظّف الكواكبي كل مـا يتقنـه مـن أدوات معرفية وثقافية وفنية لتقديم مقالة متميزة تجمع بـين اللغـة العلمية واللغة الجمالية، فإذا كنا قد تحدثنا سابقا عن بعـض ملامح اللغة الجمالية، فإنه يحسن بنا ألا نغفل إنجازا مهمـا لديه فقد استطاع، بفضل إحساسه المرهف بمسؤولية الكلمـة الصحفية، أن يحول بعض مقالاته إلى مقالات علمية، تستمد مادتها الأولية من أمهات الكتب التراثية، وعلى سبيل المثـال نجده في مقال "الطاعة لأولي الأمر" في جريدة العرب يقـدم بحثا علميا حول الآية الكريمة "**يا أيها الذين آمنوا أطيعـوا ا وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**" **(**سورة النسـاء ، آيـة رقم ٥٩**)**فقد لاحظ الكواكبي استغلال السلاطين وأمراء السوء، ومازالوا، هذه الآية، إذ تحولت على أيديهم إلى سلاح يقهـر الناس على قبول استبدادهم، ويبين لهم أن الطاعة للحاكم أمر إلهي ورد في الكتاب، فيكسبون طاعة عمياء ، لذلك يكررون

الاستشهاد بهذه الآية، يرسخون فـي الأذهـان تفسـيراتهم المغلوطة لها، غير مراعين ما يجـب علـيهم مـن العـدل والإحسان والطاعة للكتاب والسنة، وكي يضفي على كلامـه مصداقية نجده يحول المقالة إلى بحث يورد فيه أقوال بعض المفسرين الثقاة في تفسير هذه الآية، كالزمخشري الذي نجـد الكواكبي يعلق على شرحه، ويبرز أهم النتائج والتفسـيرات قائلا: "**كيف تلزم طاعة أمراء الجور، وقد جـنح ا الأمـر بطاعة أولي الأمر** (شرطه) **بما لا يبقى معـه شـك، وهـو أمرهم أولا بأداء الأمانات وبالعدل في الحكم وأمرهم أخيـرا بالرجوع إلى الكتاب والسنة، فيما أشكل، وأمراء الجـور لا يؤدون أمانة ولا يحكمون بعدل، ولا يردون شيئا إلى الكتاب وإلى السنة، وإنما يتبعون شهواتهم حيث ذهبت بهم، فهـم منسلخون عن صفات الذين هم أولو الأمر عند ا ورسوله وأحق أسمائهم اللصوص المتغلبة** ثم نجده يبين وظيفة الواو في (وأولي الأمر منكم) إذ إن العطف بها يقتضي المناسـبة بين المعطوف (أولي الأمر) والمعطوف عليـه (ا تعـالى والرسول) لذلك يستشهد بسيرة الخلفاء الراشدين، ويورد قولا

لأحدهم "**أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لـي عليكم**".

وهو بصورة خفية يقارن بين انحراف السلطان العثمـاني الذي يستغل الآية كي يضمن ولاء العامة رغم ظلمـه لهـم وبين الخليفة الراشدي الذي يحثّ الناس على طاعته مـادام يلتزم بما أمره ا والرسول من عدل، فإذا أخـلّ فـي هـذا الالتزام فلا طاعة لهم عليه!

وبعد تفسير الزمخشري لهذه الآية، يأتي بتفسـير آخـر للبغدادي، فيتوقف عند جانب دلالي آخر في هذه الآية، فيبين التنوع الكبير الذي تحمله دلالة "أولي الأمر" فقد قيل أمـراء المسلمين وقيل المراد أمراء السرايا، وقيل أولو العلم، فـإن العلماء هم المستنبطون المستخرجون للأحكام، ثـم يبـين أن الطاعة لأولي الأمر ماداموا على الحق، فإن خالفوا الشرع لا تجب طاعتهم لقوله صلى ا عليه وآله وسلم "**لا طاعة لبشر في معصية ا ، وإنما الطاعة في المعروف**" .

بعد ذلك يأتي بشرح الخطيب الشربيني الذي يضيف مـا روي عن الرسول صلى ا عليه وآله وسلم "**السمع والطاعة**

على المرء فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة".

ثم يأتي بشرح القاضي البيضاوي ليؤكد **أن ا أمر الناس بطاعة أولي الأمر بعد أن أمر أولي الأمر بالعـدل، تنبيهـا على أن وجوب طاعتهم ماداموا على الحق، وقيـل المـراد بهم على الشرع...**

يلفت نظرنا تعليق الكواكبي الذي يتوقف عند هذه الآيـة قائلا: "**تقرأ وتفسر بكل الاعتناء في مملكتنا، كأنها وحـدها عبارة عن القرآن كله، ولكنها تفسر تفسيرا مخالفا بالكليـة لأقوال المفسرين الكرام، وكثيرا ما يكتفي بذكر (أولي الأمر) ويقال على الدوام أن المراد بهم هو السلطان، مع أن كلمة (أولو) جاءت جمعا بمعنى الأصحاب، ولا يبين أبدا ما يجب عليهم من الطاعة ولرسوله.**

إذاً الغاية من التوقف عند أقوال جماعة المفسـرين هـي العودة إلى الأصول، وكشف الانحراف الذي يمارسـه ذوي السلطة حين يرددون هذه الآية، دون غيرها، وهم لا يكتفون بذلك بل يرددون تفسيرات بعيدة عن الصواب، وهم يتعمدون

مثل هذه التفسيرات المحدودة كي تخدم مصالحهم، وبذلك يعطون لاستبدادهم شرعية دينية! والدين منها براء!

لذلك نسمعه يقول في المقالة نفسها "**وهكذا يا أولي الآداب كثير من تأويلات ما أنزل بها من سلطان ولا روي عن النبي (ص) ولا عن خلفائه الراشدين ولا عمن تبعهم بإحسان، ولا يطابق العقل والحكمة ولا الإنسانية والعرفان، بل يجعل عباد الله أسارى وأرقاء لمن يتبع هواه، ولا يكترث بسواه، فافهموا رعاكم الله، كيف تمكن الاستبداد منا، وصيرنا بحيث لا نستطيع التخلص من نير الظلم، والاعتراف لا العمل بما يهواه من يذلنا ويقهرنا، حسبما يرضاه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا، نسأله تعالى أن يبيد بحوله وقوته من يفتري عليه الكذب، ويخدع عباده ويضلهم عن الصراط المستقيم(١٢).**

إن الغاية من هذا المقال أن يبين مدى استغلال السلطة المستبدة لهذه الآية الكريمة، ومدى الانحراف في التفسير الذي تنشره، وتؤسس رؤيتها الأيدلوجية عليه، لتخدع بها العامة، دون أن يهمها الابتعاد عن أصول الشريعة (القرآن والسنة) والابتعاد عن إجماع المفسرين من علماء المسلمين،

وهو بذلك يبين للمتلقي أن آراءه في تفسير هذه الآية تنسـجم مع أراء هؤلاء المفسرين، أي تنسجم مع الفهم الحقيقي للدين الذي قدمه علماء العصور الماضية.

وهكذا نجد الكواكبي، فـي مقالاتـه، يفضـح أسـاليب المستبدين في استغلال العاطفة الدينيـة، وتقـديم تفسـيرات مشوهة لآيات قرآنية، ليبرروا بها ظلمهم، لذلك يتوجه فـي نهاية المقال بالدعاء تعـالى أن يقضـي علـى هـؤلاء المستبدين الذين يحرفون كلام ا عن مواضـعه، فيضـلون الناس ويظلمونهم باسم الدين!

نظرا لأهمية هذه الآية فقد لاحظنا اهتمام الكواكبي بهـا، فقد ذكرها شارحا ومبينا مدى استغلال المستبد لها في جميع مؤلفاته ("أم القرى" و"طبائع الاستبداد" ومقالاته الصـحفية") معتمدا في تفسيرها على جهده الشخصي وعلى جهد الـذين سبقوه من المفسرين الفقهاء المشهود لهم بالعلم والدين.

٥_المقالة وأسلوب المناظرة والمقارنة:

يبدو لنا أن موضوع الخلافة كان موضوعا ملحـا (عـام ١٩٠٠) لهذا سنجده في مقال آخر بعنوان "رد رنّـان علـى رسالة تركي" لجأ فيه إلى أسلوب المنـاظرة، وقـد وجـدناه

واعيا لهذا الأسلوب، الذي يدعوه بـ"المناظرة القلمية" فهـو يتخيل أنها وقعت بين تركي مغولي وعربـي قرشـي فـي موضوع الساعة (في ذلك الوقت) وهو أيهما أحق بالخلافـة العرب أو الأتراك؟

يذكر الكواكبي **دفاع الفاضل التركي عـن بنـي قومـه،** ووصفه لهم بـ**الشجاعة والإقدام،** ثم نجده يـورد **هجومـه على العرب، فهم ضعفاء،** والدليل أنهم اليوم لا يسـتطيعون الدفاع عن بيضة الدين، فهم ليسوا من أولي البأس والقـوة، كما لا عتب ولا ملامة إذا سـلبهم الأتـراك حقـوقهم فـي الإمامة، وهو يؤكد رأيه هذا بصورة شرعية، حين يقول: **إن حديث "الأئمة من قريش"** حديث ضعيف الإسناد! رواه أبـو بكر لفض الخلاف فقط.

يلاحظ المتأمل أنه قدم وجهة نظر المناظر التركي علـى وجهة نظره الخاصة، وهو لا يسفّه وجهة نظره تلك، لـذلك يمنح التركي صفة "الفاضل" دلالـة علـى احتـرام الآخـر المخالف له في الرأي، حتى إننا نجده يذكر الصفات الإيجابية التي يراها التركي في الأتراك (الإقدام والشجاعة والدفاع عن

الدين) والصفات السلبية التي وسم بهـا قـوم الكـواكبي!! وخاصة صفات الضعف والعجز عن حماية الدين!

ثم يبين بأن الدليل الديني _ الذي يستند إليه العرب (وهو الحديث الشريف الذي ذكره أبو بكر) _ دليل ضعيف لا يؤكد أحقيتهم بالخلافة، مادام حديثا ضعيفا لا يملك سندا قويا.

بعد أن أفسح المجال للمناظر التركي أن يعـرض رأيـه ويمدح قومه ويهاجم العرب، نجده يفسح المجـال للمنـاظر العربي دون أن يفصح عن اسمه، بل نلمح هويتـه (عربـي قرشي) لذلك نستنتج أنه يتكلم بلسان الكواكبي، الـذي يمثـل وجهة نظر العرب، فنجده يبدأ بأقوى حجج التركي (الحديث الشريف) في عدم أحقية العرب بالخلافة، فيبين أنـه حـديث قوي الإسناد، ويأتي بدليل على قوته أنه أفلـح فـي فـض الخلاف بين المهاجرين والأنصار إثر وفاة الرسـول (ص) كما أنه مذكور في أهم كتـب الحـديث **لفخـر المحـدثين (البخاري).**

ثم يبدأ بتفنيد الصفات السلبية التي ألحقها المناظر التركي بالعرب، فيقارن بين أسوأ الخلفاء العـرب وأفضـل خلفـاء الدولة العثمانية؟ فيجري مقارنة بين **أشأم العرب من الخلفاء**

يزيد بن معاوية وقتله للحسين وبين أعدل خلفاء آل عثمان سليمان القانوني الذي أعدم في عصره آلاف المسلمين في إسبانيا دون أن يحرك ساكنا فقد كـان مشـغولا بـالتمتع بملذاته!

فإذا كان أشأم خليفة عربي قد قتل حفيد رسول ا (ص) والفئة القليلة التي كانت معه، فإن أعدل خليفة عثماني قتـل في زمنه آلاف المسلمين دون أن يحرك ساكنا! وقد وجـدناه يمعن في الحديث عن انحراف سليمان القانوني، وهو أفضل سلاطينهم، فنجده لا يهتم إلا بـأن يـذكره المسـلمون فـي الخطب، معترفين بسلطته، حتى لو كان هذا الاعتراف اسميا. **إذ حين تم إنقاذ خمسين ألفا من المسلمين الهـاربين مـن إسبانيا، واحتموا بحكومة إسلامية في شمال إفريقيا، أرسل لهم سليمان القانوني يقول "سمعنا أنكم أسستم حكومة فـي شمال إفريقيا فاذكرونا في الخطب" فإذا كان أعدل ملوك آل عثمان لا يهمه شيء من أمر المسلمين مهما وصلوا إليـه من هوان إلا الاعتراف بسلطته، مع أن الدولة قوية قـادرة على حماية الإسلام، ولم ينازل لحمايته، فهل ينتظـر مـن الأتراك خير في هذا العصر وهم ضعفاء وحكومتهم فاسدة؟**

وبذلك يرد على ادعاء المناظر التركـي حـين وصـف الأتراك بالشجاعة وحمايتهم للدين الإسلامي، فهم حين كانوا أقوياء عجزوا عن قتال الإسبان والدفاع عن المسـلمين فـي الأندلس، فكيف يستطيعون اليوم حمايتهم وهم ضعفاء! وهـو يعلن بطريقة غير مباشرة ضرورة اسـتقلال العـرب عـن الأتراك، ماداموا عاجزين عن حماية الإسلام.

وكي يؤكد أحقية العرب في الخلافة نجـد الكـواكبي يمعن في المناظرة فيقارن بين خليفة عربي قـديم، عـرف بتصرفاته المجنونة، كما عرف بأحكامه الجائرة (الحاكم بأمر ا) وبين سلطان معاصر للكواكبي (عبد الحميد خان) فيبين أن المسلمين في عهد الأول لم يصبهم الضرر كما أصـابهم في عهد الثاني، فقد قتل ملايين المسلمين في عهد عبد الحميد أثناء الحرب التركية الروسية، إذ خاض هذه الحرب مع أنـه لم يكن مستعدا لها، بل لم يخضها بأسلحته كافة!! حيـث لـم يستخدم السلاح الذي كان متفوقا فيه علـى الـروس (وهـو سلاح البحرية).

بالإضافة إلى ذلك نجده يسلط الضوء علـى تصـرفات السلطان التي تصل حد التناقض، إذ تارة ينفي أحـد الـولاة

الجيدين ويتهمه بالخيانة وتارة يعيده للعمل في منصب رفيـع (كما فعل مع الوالي مدحت باشا حين وظّفـه واليـا علـى الأناضول) ثم أمر بمحاكمته ثانية؟

وقد شمل التناقض ليس الأشخاص فقط، وإنما التعامل مع مؤسسات الدولة، فهو تارة يقر القانون الأساسـي ومجلـس المبعوثان (البرلمان) وتارة يقضي عليه ويفرق أعضاءه، وقد وجدناه يذكر الكثير من التصرفات غير المعقولة لعبد الحميد، ثم نجده يقول بسخرية **هذه أمور معقولة تبين ماهية الرجل، وما هو منطو عليه، ومقاصده نحو الإسلام وأهله!!(١٣)**

نلاحظ هنا استخدام لغة المنطق البعيدة عن الاستعانة بلغة الأدب، لعل حساسية الموضوع وراء هذا الاسـتخدام، فهـو يريد أن يقنع عامة الناس بوجهة نظره بأقرب الطـرق إلـى العقل، فيلجأ إلى ذكر التصرفات التي لا تدل على أن هـذا الحاكم يستحق الخلافة، فقد وصل به الأمر إلـى تصـرفات غير معقولة لا يمكن أن تقارن بتصرفات الحـاكم بـأمر ا المجنونة!! حيث تبدو تصرفاته عاقلة لم تؤذِ المسلمين بقـدر ما آذتهم تصرفات السلطان عبد الحميد!

إن أسلوب المناظرة أتاح للمتلقي تأمـل وجهتـي نظـر مختلفتين، كما أتاح له تفهم مدى الغبن الذي عاناه العـرب، في العهد العثماني، خاصة في أواخر أيامهـا، ممـا يجعلـه يتعاطف مع دعوة الكواكبي لضرورة استقلال العـرب عـن الدولة العثمانية، وهذا هو الهدف الأساسي من إصراره على إصدار جريدة خاصة به، مهما تكبد من خسـائر! لـنلاحظ دلالة الاسم الذي اختاره لجريدته الأخيرة **(العرب).**

أعتقد أن اعتماد أسلوب المناظرة فـي المقالـة أمـر لا يستطيع القيام به إلا كاتب متميز، يمتلك قدرات فكرية عالية يضاف إليها ثقافة واسعة ومرونة في الرؤية بكل ما تعنيـه من سعة أفق وانفتاح، وقد امتلك الكـواكبي هـذه الصـفات فاستطاع أن يقدم لنا مناظرات متميزة، وإن كنا قد لاحظنا أنه قد أفسح المجال واسعا أمام وجهة النظر العربية، أكثر بكثير مما أفسحه لوجهة النظر التركية، وهذا أمر لا نسـتطيع أن نلومه عليه خاصة في ذلك العصر حين كنا نفتقد مثل هـذه المناظرات، ولا ننسى أن للقهر الذي عاناه الكـواكبي هـو وقومه العرب أثرا في الحماسة لوجهة النظر العربية.

وقد كان أحد أركان أسلوب المناظرة لديه اعتماده المقارنة، بل نستطيع أن نعدها أحد أبرز مميزات الكواكبي في معظم مقالاته، فهو لا يكتفي بالمقارنة بين الحكام كما لمسنا قبل قليل، وإنما نجده يقارن بين الأتراك وغيرهم من المعتدين على الشعوب الأخرى، يقول في افتتاحية العدد الأول من جريدة العرب "**على أننا لو قسنا فظائع الأتراك في اليمن لفظائع الإسبانية في أميريكا لوجدنا أن الثانية أقل شرا، وأهون مصابا من الأولى، فإن الإسبان لما استولوا على أميريكا، رأوا أن الأميركانيين يغايرونهم في الجنسية والديانة والمعتقد، فشددوا عليهم وطأة الظلم قصد إجبارهم على تغيير معتقداتهم وتبديل أديانهم حتى يسهل إخضاع بلادهم بأسرها، أما الأتراك فإنهم استولوا على اليمن، أي على أمة العرب، التي كانت سبب سعادتهم بإخراجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهداية الذي استناروا به حتى صارت لهم دولة وسطوة واقتدار...**"**(١٤)**

تبدو لنا المقارنة بين تصرفات الأتراك في اليمن وتصرفات الأوروبيين أثناء غزو أمريكا، ليست في صالح الأتراك، الذين ارتكبوا في اليمن مذابح ضد المسلمين ، بل

كان لأهل اليمن دور في نشر الإسلام، بل هم سـبب هدايـة الأتراك إلى الدين الإسلامي وخلاصهم مـن الوثنيـة فـي الماضي، فكيف يجرؤون اليوم على ذبحهم وهم إخوانهم في الدين!! في حين كان سكان أمريكا من الهنود الحمر يخالفون الإسبان في الـدين، لـذلك أرادوا تنصـيرهم كـي يسـهل إخضاعهم، فشتان بين أهالي اليمن الذين كان لهم الفضل في نشر الإسلام وانتقال الأتراك من ظلمة الوثنيـة إلـى نـور الإيمان، وبين أهالي أمريكا الذين كانوا على الوثنية!

قد لا نستطيع اليوم أن نقبل بمنطق هذه المقارنة، التي تعد ما فعله الإسبان أقل سوءا مما فعله العثمانيون في اليمن، لكن علينا أن نحاكم الأمور وفق مقاييس عصر الكواكبي، آخذين بعين الاعتبار معاناته وقومه من وطأة الحكم العثماني، كمـا أنه يخاطب متلقيا يعطي الإسلام القيمة العليا في حياته، لذلك يريد أن يوصل إليه استباحة الأتراك دم المسلمين، وهو يزيد من فظاعة تصرفات الأتـراك، فيهـز مشـاعر المسـلمين ويستفزها، حين يوضح أنهم ذبحوا أولئك الذين أسهموا فـي نشر الدين الإسلامي!

٦_أسلوب السخرية :

يحتاج أسلوب السخرية إلى مقدرة غير عادية، ليس فقـط على صعيد الموهبة الأدبية، وإنما علـى صـعيد الموهبـة النفسية والقدرة على التقاط ما يثير الابتسامة والمرارة معـا، ومثل هذا يحتاج إلى حساسية خاصة، تشمل الأعماق الداخلية للمبدع والعالم الخارجي، كما يحتاج إلى المعرفـة والقـدرة على التقاط ما يستحق تسليط الضوء عليه، لهذا يبـدو لنـا أسلوب السخرية أسلوبا نادرا في الأدب كما في الصحافة.

وقد لجأ الكواكبي إلى هذا الأسلوب أحيانا، ففي مقاله الذي توقفنا عليه قبل قليل (في جريدة "النحلة" ١ نيسـان ١٨٧٩) نجده يسخر من انتشار الفساد في مدينته (حلب) حتى جعلـه جزءا من طبيعتها، لذلك فإن أي وال نزيه يأتيها لابد أن يفقد نزاهته بعد فترة، أي بعد أن يسري ماؤها في دمـه، فيغيـر أخلاقه، ويبدل طبيعته، ومثل هذه السخرية خير تعبير عـن مدى الفساد المستشري ليس لدى الإنسان بل تجاوز ذلك إلى أحد أهم مظاهر الطبيعة ا(الماء) الـذي لا يمكـن للإنسـان الاستغناء عنه! لهذا بات داء الفساد مستشريا كالوباء، وعبر هذه السخرية نتعرف على حقيقة مؤلمـة، وهـي أن جميـع

الولاة منحرفون، فهم يشربون الماء الذي يسري فسادا في دمائهم!

تتكرر السخرية من الولاة في مقال آخر نشره في جريدة الأهرام (١٢ حزيران ١٨٧٩) فقد وجدناه يقول "**جاء مبعوثان لمأمورية الإصلاح (دولتلو مظهر باشا وعزتلو نوريان أفندي، فاستقبلهما الأهلون بمزيد من الاحتفال والمسرة، وأهلوهما بالأفكار المقام الأعلى بغية أنهما عنصر حياة إصلاحنا... وقد كان من باكورة أعمال هذين الموظفين أنهما رحلا إلى مرعش، بعد أن أنس بلادنا فيهما عدة أيام دون أن نسمع عن أعمالهما المهمة سوى القول (سيصير هذا الأمر وسيتم الأمر الآخر وما شاكل من ألفاظ التنقّيس والتسويف) وبلّغنا من نثق به أن أحدهما قال علانية: إن بلادنا بعيد عن الإصلاح على أن حضرة الوزير لم يشأ مبارحة بلادنا دون أن يبقي من أعماله أثرا للذكرى ذلك أنه استدعى أحد الموظفين وطلب منه تعيين ابنه ليكون كاتبا بمعيتهما براتب قدره ألف غرش، مع أنه يجهل التركية وضعيف في العربية أيضا، ولم تسبق له خدمة تؤهله إلى ذلك، وقد رماه الناس بالتنديد ولكن:**

وإذا المليح أتى بذنب واحد

جاءت محاسنه بألف شفيع(١٥)

يفضح هذا المقال مقدار البؤس الذي عاناه الناس في ظل السلطة العثمانية التي تدعي الإصـلاح، فترسـل مبعـوثين (وزيرين) من أجل القضاء على الفساد فيزيدان المدينة فسادا! لذلك لا يجد الكواكبي أسلوبا يعبر عن بؤس هذه الحال سوى لغة السخرية، فيجسد لنا في البداية كيف احتفـل بقـدومهما الأهالي للاعتقاد بأن الخير آت والفساد مول، فحـل هـذان المنقذان المكان الأرفع في أذهان الناس، لكن يفاجأ الناس بأن أول إنجاز لهما هو ترك حلب والسفر إلى مرعش للتـرويح عن النفس! ويستمر في السخرية فيبين كيف استأنست حلـب بحضورهما دون أن يفعلا شيئا سوى الكلام وبذل الوعود!

ويمكن أن يلاحظ المرء هنا إلى جانب السـخرية مقـدرة الكواكبي على التعبير الدقيق الذي يعتمـد علـى الحساسـية اللغوية التي لمسناها لديه في كتبه وفـي مقالاتـه، لـذلك لا يكتفي بالإشارة إلى أن هذين الـوزيرين يسـتخدمان ألفـاظ التسويف بل يضيف إليها ألفاظ التنفّيس، ومثل هذه الألفـاظ التي تدلّ على فهم عميق لنفسية العامة التي ترتاح للوعـود

وتصدقها بعد أن طفح كيل الفساد! فيخفّ إحساسها بـالتوتر، إذ نفّس الكلام عن ضيقها! كما يدلّ على فهم عميق لأعمـاق المسؤولين الذين يكثرون من الوعود ليمتصوا نقمة النـاس! نلاحظ أن هذه المماطلة (التسويف) تحيل الأفعال إلى وعـود لن تتحقق في المستقبل، وهي تكـاد تقـوم بالـدور نفسـه والإيحاءات ذاتها للفظة (التنفيس) لذلك تعمد أن يكونـا فـي صيغة صرفية واحدة! كي يفيد من جماليات التكـرار التـي تتخذ دلالات تحريضية! وتتعـزز السـخرية مـن هـؤلاء المصلحين!

وهو يستمر في السخرية، فيبين أن أحد المبعوثين صرح بأن البلد بعيد عن الإصلاح ليريح ضميره!! لكن السـخرية المؤسية التي تقطر مرارة هي التي لحظناهـا فـي الفقـرة الأخيرة، حين ترك أحدهما أثرا يخلّد ذكراه وذلك حين أمـر بتعيين ابنه موظفا براتب ضخم دون أن يملك من المؤهلات سوى أنه ابن مسؤول كبير! أتى لإصلاح البلدة فزادها فسادا!

يمكننا أن نقول: بلغت اللغة الساخرة ذروتها، حين أتـى بتناص شعري، يصف الوزير المفسد **بـ(المليح)**، ثـم بـين ساخرا أن محاسنه الكثيرة التي لمسنا بعضها قبل قليل تشفع

له مثل هذا الخطأ! وزيادة في السخرية لا يجعلها شفاعة واحدة، بل ألف شفيع! كأنه يشير إلى الدلالة النقيضة للفظة **محاسن** أي المفاسد التي ارتكبها في البلدة التي لحظنا منها الإهمال واستغلال المنصب!

لاشك أن أسلوب السخرية يحتاج إلى مقدرة لغوية وتخييلية متميزة، وقد تجلت هذه المقدرة لدى الكواكبي منذ وقت مبكر في مقالاته، خاصة تلك التي تتخذ طابع النقد الاجتماعي وتلمح إلى النقد السياسي، يقول في صحيفة "الاعتدال (العدد الأول عام ١٨٧٩) في مقال يحمل عنوانا ساخرا هو (**آثار جغرافية في حلب**) إذ نظن للوهلة الأولى أننا أمام مقال تاريخي، يتحدث عن مواقع أثرية في مدينته، نفاجأ بأن هذه المواقع هي أقذار وأوساخ متراكمة عبر الزمن!

"إن في حلب بعض آثار جغرافية مهمة، نرى لبيانها لزوما قويا لأجل تصحيح تاريخ جغرافية حلب، فمن ذلك صحراء سوق الجمعة... وفيها سلسلة جبال تحاكي جبال أورال في ارتفاعها، وهي متكونة من أوساخ المدينة... ولشهرة هذه الصحراء لا حاجة إلى تحديدها.

ومن تلك الآثار أيضا بحيرة الكلاسة، وهـي مسـتنقعة تتكون من اجتماع مياه القاذورات ...في هذه الأيام نضـب ماؤها، ولا نعلم هل هذا من شدة حرارة هذا الصيف وهـو الغالب أم من ثمرة دائرة همة دائرة البلدية الثانية...

ومن الآثار مزابل الحمامين التي هـي فـي جسـامتها وارتفاعها وشكلها المربع والمستدير تحاكي أهرامات مصر المشهورة، وهي تتكون من الروث الطري، ويتساق علـى هذا الشكل لأجل التجفيف، ولها فائدتان للمدينـة: الأولـى بخارها، والثانية: دخانها الذي ينتشر في سـماء المدينـة، فيظللها ويلطف عنها الحرارة صيفا والبرد شتاء!!! وهـذا كله من بعض فضل دائرة البلدية."(١٦)

يستخدم هنا أسلوب السخرية اللاذع الذي يحفر ألما فـي الوجدان، إذ عادة تحتفل المدن بآثارها التي تجلب لها السمعة الحسنة، لكن آثار حلب من نوع آخر (جبال من الأوسـاخ، بحيرة من مياه القاذورات، مزابل ترتفع كالهرم) مما يسـيء إلى سمعتها!

لذلك يصفها هذا الوصف الساخر: آثـار مهمـة، يـرى الكواكبي لزاما عليه أن يشير إليها، كي ينتبه المسؤولون إليها

ويسعون إلى إصلاحها، كي يتم إنقاذ حلب من هذا التشـويه في المنظر وقبح الرائحة!

كذلك يلجأ إلى الصورة السـاخرة إذ تحولـت فضـلات المدينة إلى معلم أثري هام يضاهي في عظمته الأهرامـات المصرية!

وقد تتخذ السخرية للوهلة الأولى طابع التعليل العقلي لكن حين نتأمل هذا التعليل نجده بعيدا عـن المنطـق، فقمامـة الحمامين التي تتكون من الروث الطري لها فائدتان: البخـار والدخان، وهذا كلام يتخذ طابع التحليل العلمي، وحين نمعن النظر في هاتين الفائدتين نجد أنهما يتجليان أولا فـي بخـار ينشر روائح نتنة، وثانيا في دخان يلاطـف الحـرارة صـيفا والبرد شتاء!!! وهذا غير معقول!

إن السخرية التي يمارسها الكواكبي في مقالاتـه ليسـت أسلوبا جماليا، يضفي تنوعا على أساليبه فقـط، وإنمـا هـو أسلوب يساعده على أداء رسالته التنويرية، إنه يلجأ إلى كافة الوسائل التي تساعده، ولعل الوصف الساخر أحد أهم عوامل الإبلاغ اللاذع لرسالته، كي يستطيع عبر هـذه الرسـالة أن يحفّز المتلقي وينمي مشاعر المرارة في أعماقـه، لتؤرقـه

وتحرضه على التغيير، ومن جهة أخرى يحرض المسؤولين على أداء واجبهم في الإصلاح، خاصة حـين يبـين مـدى إهمالهم حتى إن الطبيعة تقوم بما عجـزوا عنـه، فتجفـف المستنقع القذر بحرارتها رأفة بحال الإنسان وسمعة المدينة! لذلك نجده يختم المقال بعبارة غير بريئة واخزة بسـخريتها (هذا كله من بعض فضل دائرة البلدية) تجسد مسؤولية رجال الدولة، وتبين مدى إهمالهم في الإصلاح مما أدى إلى ظهور هذه المعالم المنفرة في المدينة!

هنا لم يكتفِ بالتخييل الساخر، بل نجـده يسـتخدم لفظـا ينضح سخرية هو "فضل" التي توحي لنا بـدلالات نقيضـة (سوء تصرف، إهمال...) ومن طرف خفي يـوحي لنـا أن أمثال هذا الإهمال نلمسه بكثرة لذا جعل لفظة فضل مسبوقة بـ(بعض) إذ إن هناك آثارا كثيرة لإهمالهم لم يحدثنا عنها!

المقالة والموروث الديني:

تحتاج لغة المقالة إلى لغة تـرتبط بالحيـاة اليوميـة، أي ترتبط بلغة الناس وهمومهم، ولو تأملنا لغتنـا اليـوم، بعـد حوالي مئة سنة من وفاة الكواكبي للاحظنا أن الكثيـر مـن

مفرداتها ذات صلة بالموروث الديني، فما بالكم في زمن الكواكبي!

تمتاز لغة الكواكبي بحيويتها ونزوعها نحو الجمال التعبيري، ولعل أحد مصادر هذه الحيوية وهذا الجمال اعتمادها على لغة مألوفة لدى المتلقي، تعيش في وجدانه، وتؤثر في سلوكه اليومي هي لغة الموروث الديني، وقد استطاع أن يضفي عليها رؤية خاصة به، نابعة من رغبته في التغيير والثورة على الحكم العثماني، لذلك نلاحظ أن لغة الحمدلة التقليدية، تتحول على يديه إلى لغة حيوية موظفة لخدمة آرائه التنويرية "**الحمد المنتقم الجبار والصلاة والسلام على النبي العربي وآله وأصحابه، أما بعد فقد أصدرنا هذه الجريدة باسم "العرب" بعد الاتكال على ا الموفق لصالح الأعمال، عاهدنا النفس على أن نتوخى سبيل الصدق والحق والإنصاف..."(١٧)**

يتحول الأسلوب التقليدي (الحمدلة) على يد الكواكبي من قالبه الجامد إلى لغة حيوية تجسد معاناة الكواكبي وقومه من استبداد الحاكم الغريب، لهذا نجده يتوقف في افتتاحية العدد الأول من جريدة "العرب" عند صفات ا تعالى الكثيرة، التي

تصل إلى تسع وتسعين صـفة، فيختـار صـفتين (المنـتقم والجبار) اللتين توحيان بانتقام ا من الظالمين ويذكرهم بأن ا أقوى من جبروتهم، وبذلك يبثّ الأمل في قلوب العـرب، موحيا لهم بإمكانية القضاء على جبروت الدولـة العثمانيـة ماداموا يؤمنون با ويتخذون من قوته تعالى وانتقامه مـن الظالمين مثلا أعلى لهم، وحين يأتي دور الصلاة على النبي نجده يؤكد عروبته للأتراك، ومن طرف خفي يذكّر المسلمين من قومه بهذه الحقيقة في زمن بات السلطان العثماني يدعي ما لا يحق له فينادي بنفسه خليفة للنبي العربي، بعد ذلك يبين لقومه مفهوم التوكّل على ا لابد أن يقترن بصالح الأعمـال وأفضل الصفات الأخلاقية التي دعا الدين إليها.

وبذلك تزود الحمدلة المسلم بما يحتاجه في صراعه مـع الحاكم من مثل أعلى يقتديه، وهو مستمد من أركان إيمانـه با والرسول، كما يذكره بحقائق قد تغيب عن ذهنه، فيستغل الحاكم جهله بها، ثم ينقي ذهنه من شـوائب الأفكـار التـي تسيء إلى فعاليته، وتبقيه في حالة الجمود والتواكل، فيدعوه باسم الدين إلى العمل والتزام مكارم الأخلاق.

وهو يحرص في العدد نفسه على ذكر الغـرض الوحيـد الذي دفعه لإصدار هذه الجريدة "**هو الـدفاع عـن حقـوق العرب...التي اغتصبها قوم لا أخـلاق لهـم ولا ذمـة ولا شرف، قد عاثوا في الأرض مفسدين، ولم يعبؤوا بنصوص الشرع الإلهي ومحكماته، فتراهم لا يكترثون بحدود السـنة النبوية وبيناتها، بل يتبعون أهواءهم في جميـع أعمـالهم، فيضلّون عن سبيل ا ، ويضلّون عباد ا ، فبئس مـا هـم يعملون، وتعسا لأناس إليهم يميلـون وآثـارهم يقتفـون، وباتباعهم كثيرا من الذنوب والمخازي يقترفون..."(١٨)**

تبدو لنا لغة التناص الديني واضحة، فقـد اسـتخدم لغـة القرآن ألفاظا وتراكيب فبدت جزءا حيويا من لغته [عاثوا في الأرض فسادا ("سورة المائدة"، آية ٣٣) يتبعـون أهـواءهم ("سورة القصص"، آية ٥٠) يضلون عن سبيل ا ويضـلون عباد ا (سورة "ص " آية ٢٦) فبئس ما هم يعملون ("سورة المائدة"، آية ٦٢) وتعسا لأناس إليهم يميلون (سورة "محمـد" آية ٨)...] فيستغل ما تحمله من قوة تعبيرية ودلالة قدسـية تزيد من وضوح الدلالة وتأثيرها بما تمتلكه مـن مخـزون عاطفي، إذ يرددها المسلم في عباداته.

نلاحظ أنه أجرى على هذه التراكيب بعض التحوير لتناسب مقصده وتساعده على التأثير في المسلمين من أجل مقاومة الطغيان التركي، ومثل هذا التناص يبدو سمة أساسية من سمات أسلوبه.

وقد نجده يستعين بالنص القرآني بشكل صريح، أي دون أي تغيير أو تحوير، ففي موضوع خطير كشروط الخلافة، يبين أن علماء المسلمين قد استخرجوها من قوله تعالى لنبيه داود عليه السلام **"يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل ا "(سورة ص، آية ٢٦) .**

إن من يقبل بالسلطان العثماني خليفة لاشك أنه إنسان جاهل لا علم له بأحكام الشريعة، لذلك يضع النص القرآني بين يديهم، باعتباره الحكم الفصل والحجة الدامغة التي توضح للمسلمين أن الصفة الأساسية للخليفة هي أن يحكم بين الناس بالعدل، لذلك نجده بعد ذلك يفصل في الشروط، فيرى وجوب أن يمتلك الخليفة صفات الرجال ذوي الكمال! أي صفات القوة والشجاعة التي تلزم لتنفيذ الأحكام وإقرار الحق.

وحين يتعرض الكواكبي للاضطهاد على يد الوالي (دولتلو كامل باشا) الذي أغلق جريدته "الشهباء" ثلاث مـرات، فـلا يجد الكواكبي أمامه إلا الخيال الذي يسـتمد مكوناتـه مـن المرجعية الدينية، كي يوضح مدى الاضطهاد الذي تعـرض له، فنجده يقول: **"إن حضرة الوالي…ماذا يجيب إذا سئل في محكمة الإنسانية عن سبب مقاومته، وبذل جهده في صـد هذا المشروع الخيري ومعارضة القائمين بـه وإضـرارهم ماديا وأدبيا، هل له من جواب يدفع عنه الحكم الحق، بـأن السبب ليس إلا ما في فطرته من عداء للحرية".**

إن محكمة الإنسانية التي يتخيلها الكواكبي وفق المنظـور الديني تشكّل عزاء له، فقد جعلها صورة عن يوم الحسـاب، حيث يقف كل إنسان بين يدي ا تعالى للمحاكمـة، لـذلك يتخيل الوالي الذي آذاه في ماله وفي سمعته، فكبده خسـائر مادية ومعنوية حين أمر بإغلاق صحيفته، وقد مثل في هـذه المحكمة، ليتلقى عقابه في الآخرة، مادام لا يلقاه في الـدنيا، وبفضل هذا التخييل الديني يفرغ الكواكبي بعض غضـبه، ويحس تعويضا عن خسائره، مما يدفعه إلى متابعة نضـاله متجاوزا إحباطه.

كذلك رأيناه يستغل لغة الموروث الديني في مقالاته لتأكيد وحدة المسلمين، فمثلا نجده في صحيفة "الشهباء" (ع٤، ١_١٣ كانون الأول عام ١٨٧٧) يكتب مقالا يشيد بمساندة مسلمي الهند للدولة العثمانية، أثناء الحرب بينها وبين روسيا، وذلك بإرسال المال إليها، فيقول الكواكبي **"إن إعانتهم المتواصلة إلينا الآن على ما يظهر منهم من اشتراكهم معنا في الحواس سرورا وكدرا أعظم دليل لما لهم من الميل والاحترام لمركز الخلافة الإسلامية، كما تقتضيه الشعائر الدينية اتباعا لمضمون الحديث الشريف "مثل المؤمنين في توادهم كمثل الجسد إذا شكا بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى".**

وبما أن الكواكبي إنسان متدين لذلك نجده حريصاً على الدقة في تقديم النص الديني، وحين لا تسعفه الذاكرة على ذلك، يسرع إلى التصريح، بأنه لم يذكر الحديث الشريف بحروفه الصحيحة، لهذا وجدناه يقول (اتباعا لمضمون الحديث الشريف) فهو يذكر معناه اعتمادا على ذاكرته دون نصه الحرفي، وفي هذا دليل على إدراكه لحساسية النص الديني من جهة، فيستطيع أن يحوز ثقة المتلقي من جهة

أخرى، ليتمكن من التأثير فيه، وبذلك يستغل ثقافته الدينيـة، التي تسعفه في تقديم الخطاب الديني بكل مـا يحملـه مـن دلالات مؤثرة تؤكد وحدة المسلمين.

إن استخدام التناص الديني لدى الكواكبي يبدو لنا استخداما لا واعيا أحيانا باعتباره جزءا من لاوعيه المقدس الذي كون أعماقه عن طريق التربية والثقافة التي تلقاها، حتـى باتـت جزءا من كيانه، باختصار إنها أثر من آثار البيئـة المتدينـة التي نشأ فيها، ولكن أحيانا يبدو لنا استخدام هـذا التنـاص استخداما واعيا من قبله، فهو يريـد أن يوظّـف الـدلالات المقدسة للخطاب الديني التي تحرك وجدان الناس وتؤثر في فكرهم أكثر من أي خطاب آخر، إذ تكـاد تشـكل الثقافـة الوحيدة التي كانوا يتلقونها في حياتهم.

المقالة والموروث الشعبي:

إلى جانب لغة الموروث الديني في مقالاته بـرزت لغـة الموروث الشعبي، وإن كانت بنسبة أقل من لغة المـوروث الديني، فقد لاحظنا اسـتخدامه بعـض العبـارات الشـعبية (التناص الشعبي) في مقالاته إذ يعتمد المباشرة فـي القـول ("إذا أردت الأمر أن يمشي ارش" "من لـه فم لابد أن يأكل"

"لا تؤكل العشرة حتى تطعم التسـعة"...) والكنايـة ("نـزل الميدان" "سحب رجله"...) كناية عن الـوالي فـي العصـر العثماني الذي لا يمكن إلا أن يمر بميدان الفسـاد ويسـحب رجله باتجاهه!!

إنه يريد بهذا الاستخدام للغة الشعبية أن يجسد الداء بلغـة أهله الذين يعانون منه، كما يسعى إلى تقديم الدواء باللغـة نفسها، لهذا بدا حريصا على تقديم العبـارة الشـعبية بلغـة فصيحة بسيطة، يستطيع الصحفي أن يتواصل عبرهـا مـع القارئ العادي، فتصله الرسـالة الإصـلاحية التـي يراهـا الكواكبي وسيلة إنقاذ للإنسان الذي غيبه الاستبداد في ظلمات الجهل.

استخدم في مقالاته أيضا الحكمة التي هي ضمير الشـعب وخلاصة تجاربه، بالإضافة إلى أنها بدت جزءا من تجـارب الكواكبي مع الاستبداد الذي أرقه في كل لحظة من لحظـات حياته، لهذا كانت رؤيته الخاصة صدى لرؤية الحكماء الذين سبقوه في المعاناة فشكلوا وجدان الناس، وبذلك وضـع يـده على الحكمة المتوارثة التي شكلت وعيه ووعي الآخرين، فقد تعلّم منها تداعيات الاستبداد وامتداد ظلاله ليشـمل الحـاكم

وعامة الناس معا، لذلك لن يحمل سيف الاستبداد شخص واحد هو السلطان، وإنما يحمله كثير من الناس في وجه بعضهم بعضا لأن "**الناس على دين ملوكهم**" .

ويبدو لنا أن معظم المقولات الشعبية التي قدمها الكواكبي ذات صلة بما يقال عن الفساد أو الاستغلال، نجده يقول في افتتاحية الشهباء (العدد العاشر، كانون الثاني ١٨٧٧) "**وقد قالت الحكماء إذا ظهر الاختلال في أحد أطراف المملكة فعلى أهلها أن يبادروا لإصلاحه حالا، وإلا فإذا دام عشر سنين يعز استدراكه وينقطع الأمل من ملاقاته، وحينئذ يتعين الاجتهاد في منع امتداده إلى سائر الأطراف بإبدال جميع مباشري إدارته بغيرهم، وأما إذا ترك الأمر فلا يلبث أن ينتشر في المملكة عموما، وحينئذ لا يبقى فيها من لم تفسد أخلاقهم ليستعان بهم، وإذا فلينتظر لهذه المملكة ما ينتظر للبدر في عجز الشهر"(١٩).**

حين نتأمل الحكمة التي أوردها في هذا المقال نلاحظ أنها حكمة عملية، تمس حياة الدولة وموتها، إذ يجعلنا نحس أنها على صلة حميمة بحياة الناس وصحتهم! فإن أي خلل في

الدولة إذا لم يسارع لتداركه وعلاجه استفحل أمره وصـعب شفاؤه، كالداء الذي يصيب الجسد، لـذلك يـرى ضـرورة الإسراع بالعلاج، بعزل المفسدين في الدولة، خشية أن يمتـد الفساد في أرجائها كلها، ويستشري فلا نجد رجـلا صـالحا شريفا يتولى أمورها!

يتخذ الكواكبي من حكماء لا يسميهم قناعا يقـول عبـره أفكارا تنويرية، تعلن خطورة إهمال الإصـلاح وضـرورة معالجة الفساد قبل استفحاله، وذلـك بتنظيـف الدولـة مـن الفاسدين سواء أكانوا ولاة أم موظفين، وهو لا يكتفي بالتعبير المباشر ، وإنما يلجأ إلى التلميح أيضا عبر التشبيه، لذلك لـم يقل: إذا لم يعالج الفساد في الدولة بأسـرع وقـت انهـارت الدولة، وإنما شبه مآلها إلى الغياب المؤكد بغياب القمر آخر الشهر عن صفحة السماء، ولاشك أن مثل هذا الكلام الخطير لا يستطيع أن يقوله بشكل مباشر لذلك يلجأ إلى التشبيه، كما لا يستطيع أن ينسبه لنفسه صراحة، لذلك يتوارى وراء أقوال الحكماء! التي تكتسب أهمية خاصة فـي المخيـال الشـعبي والرسمي.

وبذلك يؤدي التناص الشعبي دوريـن أساسـيين: الأول إضفاء مصداقية واقعية، تجعل الأفكـار التنويريـة امتـدادا للوعي الجمعي واللغة اليومية المتداولة بين عامـة النـاس، وبالتالي تبدو الحكمة مكونا أساسيا من مكونات شخصـيتهم، مما يجعلها أقرب إلى لغتهم الخاصة وبالتالي أكثر تأثيرا في وجدانهم.

أما الدور الثاني للحكمة الشعبية فيتمثل في كونه وسـيلة فنية تتيح للكواكبي حرية التعبير عن أفكار خطيرة، سيحاسب عليها فيما لو أتت على لسانه بشكل مباشر، لـذلك يقـدمها للمتلقي الرقيب على لسان الحكماء المجهولين، وهو يحرص على جمالية التعبير لذلك يلجأ إلى التشبيه الذي يمنحه حريـة تجسيد الفكرة مهما كانت خطيرة، كما يزود النص بجماليـة خاصة، تجعله أكثر قربا من المتلقي.

يلفت نظرنا التنوع الكبير في ثقافة الكواكبي، وهـذا مـا وجدناه في كتابيه "أم القرى" و"طبائع الاسـتبداد" ومقالاتـه الصحفية، وخير دليل على ذلك تنوع التناص لديه:

١. التناص التراثي: التناص الديني (قرآن كريم، أحاديث شريفة، أقوال آل البيـت والخلفـاء الراشـدين...)

والتناص الشعبي (حكمة، مثل، عبارات شـعبية...)
كما وجدناه قد اطلع على الكتـب التراثيـة الهامـة،
ليستفيد منها استفادة واعية (مقدمة ابن خلدون...).

٢. التناص الغربي: استمد من التاريخ الغربـي القـديم (نيرون) والتاريخ الحديث ورجال السياسة(مكماهون) كما وجدناه قد اطلع على مؤلفات غربية ليستفيد منها استفادة مبدعة (كتاب "ما هو الاسـتبداد" لفيتوريـو الفييري....).

جماليات المقالة لدى الكواكبي:

لكن حين نتأمل لغة الموروث التراثي ولغة الثقافة الغربية نلاحظ سيطرة التناص التراثي على خطاب الكواكبي وخاصة التناص الديني، نظرا لأهميته ودلالاته المقدسة، وفعالية لغته في التواصل مع العامة والتأثير فيهم، كما لاحظنا سابقا.

وبناء على ذلك يمكننا القول بأن السـمة الأساسـية مـن سمات أسلوب الكواكبي، التي منحت مقالاته جمالية خاصـة هي اللغة الدينية، فكان التعبير بمفردات وجمـل ذات دلالات دينية فاعلة وحيوية إحدى خصائص التعبير الأدبـي لديـه، لنتأمل فقط هذه الجملة التي يختم بها افتتاحية العدد الرابع من

"الشهباء" "**لا نقول هيهات أن يوجد في صلصال الشرق إبريز بل نقول وما شيء على ا   بعزيز**" .

وقد جاءت هذه الخاتمة بعد أن تحدث عن شيخوخة الدولة وانهيارها، لهذا يختار خاتمة ينعش عبرها الأمل، ويرد على أولئك المحبطين من أبناء الشرق الذين لا يرون حولهم سوى الوحل الذي يغطي حياتهم، ويبين لهم أن الذهب قد يختبئ في هذا الوحل! وهو يستغل كون المتلقي إنسانا مؤمنا، فيبين أن ا   قادر على صنع المعجزات، ممـا يبعـث الأمـل فـي الصدور، لذلك تبدو حالة الضعف التي يعيشها الشرق حالـة آنية لابد أن تتغير، المهم أن يمتلك الإنسـان الإيمـان بـا والعمل والأمل.

يبدو لنا الكواكبي في مقالات مفكرا أديبا يهمه التغيير، لذلك يبدأ من أعماق الإنسان الذي يعاني من الاستبداد والفساد فينظر إلى الحياة نظرة سوداوية، فيحاول أن يهز قناعاته ويبين إمكانية تغيير هذا البؤس والانحطاط، فرأى في الكتابة الصحفية إحدى وسائل المثقف التي تدل أولئك المحبطين على بداية الطريق.

صحيح أن الكواكبي لم يستطع أن يتخلص مـن بعـض السمات الأسلوبية الشائعة في عصره كالمحسنات البديعيـة،

فقد لحظنا، في الجملة السابقة على سبيل المثـال، الجنـاس (إبريز/ عزيز) والطباق (صلصـال/ إبريـز) لكـن هـذه المحسنات لم تشكل عبأً، باعتقادنا، على اللغة الصحفية لـدى الكواكبي، بل زادت لغته وضوحا في التعبير وجمـالا فـي التصوير والإيقاع، ويمكن القول أن هذه المحسنات لم تكـن سمة أساسية تكبل أسلوبه، وإنما تأتي أحيانا لتزيد أسلوبه تألقا وحيوية.

كما يمكننا القول بأن اللغة الأدبية كانت مكونا أساسيا من مكونات لغته الصحفية، وقد برزت لنا شخصـية الكـواكبي الأديب منذ أول مقال استطاع جان دايه العثور عليـه فـي جريدة النجاح (ع ٣٣، ٢٧ آذار ١٨٧٢ المأخوذ عن جريدة الفرات) فها هو ذا يصف حفلة مدرسية في حلب، قام طالب فيها "**بالثناء ببلاغة على ما فاز به هذا العصر المأنوس من نصرة العلوم وافتتاح معاقل الآداب التي طالمـا حاصـرتها جيوش التعصب و العدوان وحجبت سطوع أنوارهـا علـى الأمة...فيا ليت مكاتب[مدارس] الولاية كلها كانت تنحو هذا النحو، فكم في تشخيص الحوادث القديمة من الإفادات التي تحرر العزيمة وتنبه الفضيلة، وتؤنّب الرذيلة، وترفع عقول**

التلاميذ...وأين ذلك كله من تشاغل الأكثرين عن بذل الجهد والعناية في تأديب الأولاد إذ يتركونهم عرضـة لافتـراس وحوش الخشنية والبربرية عندما يقطعونهم عن المكاتـب ويصدونهم عن أسباب التعلم والتأدب..ويا للمصـيبة حـين يغدو الوالدون عثرة لأولادهم بالمثل والعمل"(٢٠).

تمتاز اللغة الأدبية عادة بالانزياح عن سياقاتها المألوفـة (نصرة العلوم، افتتاح معاقل الأدب، جيوش التعصب، تحرر العزيمة، تنبه الفضيلة، تؤنّب الرذيلة...) فهي لغـة تعتمـد جمال التعبير والتخييل متجاوزة بذلك الاستعمال اليومي للغة، والكواكبي يتعمد استخدامها كي يستطيع التأثير في المتلقـي بشكل أقوى، لنتأمل هذه الصورة التي تبين حالة إهمال تعليم الآباء لأبنائهم فيضيعهم الجهل، يشبهها الصـحفي بصـورة مؤثرة: إنها تشبه حالة ترك الأولاد في غابة تفترسهم فيهـا الوحوش، وهكذا يبدو الجهل لدى الكـواكبي معـادلا فنيـا للوحوش التي تقضي على الحياة الإنسانية!

لاحظنا مع بدايات ممارسة الكواكبي للكتابـة الصـحفية طغيان اللغة الأدبية على لغة اليومي المعيش، دون أن يعني هذا القول اهتمامه بالصنعة الأدبية على حساب الهم المعرفي

والتنويري، لكن مع تطور ممارسته الصحفية ستخف هذه الظاهرة، وسنجد سطوع لغة الفكر ومرونتها في مرحلة النضج، دون أن يتخلى عن جمال التعبير والاستعانة بلغة الأدب، التي تبدو منسجمة مع لغة الحياة اليومية للكواكبي أي لغة الهم السياسي.

لنتأمل هذا التطور في مقالة له في جريدة "العرب" (١٩٠٠) وهي آخر جريدة أصدرها الكواكبي يهاجم فيها أولئك الذين **"يدعون بطول العمر وبقاء الحياة لقوم هم أبعد الناس عن شروط الخلافة، وقد انتحلوا لقب الخلافة بهتانا وزورا، وأقبلوا على المناهي والمنكرات، وجعلوا يخربون ملكهم ويهدمون ديارهم بما لم يأتِ بمثله الزمان من المظالم وقبايح الأعمال ويسلمونهم إلى أعدائهم، ويجتهدون في تبديد ما بقي لهم من المنعة والسلطان، ويهتكون أعراضهم، ويسلبون أموالهم بجميع ما تصل أيديهم الأثيمة من الوسائط، ويكيدون لهم كل يوم مكائد شنيعة ويغتالونهم اغتيالا تقشعر عند استماعه الأبدان وتتفتت الأكباد، بل تتصدع له الجبال والصخور لو كانت تسمع كما يسمع الذين يدعون لأولئك الغاشمين بالبقاء في مساجدهم التي هي تعالى وتبارك**

...فيا أيها المسلمون متى تتنبهـون مـن سـباتكم الثقيـل، وترتدعون عن غيكم الوبيل، فتنصبون خليفة من القرشـيين، يصلح للخلافة ويملك شروطها؟"(٢١).

تبدو لنا لغة الكواكبي الصـحفية، هنـا، أكثـر سلاسـة وحيوية، صحيح أنها لم تخلُ من المترادفات والسجع، لكنهـا بدت أكثر مرونة مـن مرحلـة البـدايات، إذ قلّـت اللغـة التصويرية، واستعاض عنها بالأفعال الحركية التـي تزيـد المعنى تألقا وفعالية (انتحلـوا، أقبلـوا، جعلـوا يخربـون، يسلمون، يغتالون، ...).

وحين أراد أن يجسد هول أفعال وأقوال تصدر عن أعوان السلطة العثمانية المنافقون (منها الدعاء للسلطان في المساجد، مع أن هذه المساجد خصصت تعـالى!) نجـده يسـتخدم أسلوب المبالغة التي تبرز فظاعة ما يرتكبه هؤلاء المنافقون من إثم، تتفتّت له الأكباد، وتتصدع له الجبال والصـخور، إذ قدسوا الطغاة، مع أن التقديس في الإسـلام لا يكـون إلا تعالى!!

لكنه في خاتمة المقال حين يتوجه بالخطاب إلـى عامـة المسلمين غاضبا، نجده يكثف لغته الانفعالية عبر إيقاع قوي،

فيلجأ إلى جملتين متوازنتين يؤطرهمـا السـجع "فيـا أيهـا المسلمون متى تتنبهون من سباتكم الثقيل، وترتـدعون عـن غيكم الوبيل" وقد اختار لغة تحريضـية ذات دلالات قويـة، لذلك جعل للسجع أحرفا ذات إيقاع قـوي (المـيم، والـلام والنون المسبوقان بحرف المد) ليرن جرسـها فـي أعمـاق المتلقي لعلها توقظه من سباته! فلا يقبل التعظيم والتقديس إلا تعالى.

وهكذا لم يستخدم الكواكبي هذه المحسنات للزينة كما كان شائعا في عصره، وإنما استطاع أن يوظّفها لتصبح منسجمة مع فكرته، مما يجعلها أكثر رسوخا وتأثيرا، ليضمن تفاعـل المتلقي مع رسالته التنويرية، لذلك بإمكاننا أن نلاحظ أن هذه اللغة استطاعت أن تضفي حيويـة تعبيريـة علـى المقالـة الصحفية، ولم تكن قيدا يكبلها، وقد كان للممارسـة الدائمـة للغة أثر في تطويرها (سواء في الكتابـة الصـحفية أم فـي تأليف الكتب، أم في كتابة شكاوي الناس ضـد ولاة الأمـر الفاسدين) حتى يمكننا القول بأن معاناة الكـواكبي اليوميـة للاستبداد كانت تتجلى لديه عبر الكتابة التنويرية، فهو أحـد

الذين نقلوا اللغة من قوالبها الجامـدة إلـى نـبض الحيـاة وهمومها.

لذلك كان الكواكبي، إلى جانب رواد النهضة الآخرين، قد أسهم بالإصلاح الفكري واللغوي معا، فإذا كنـا لـم نجـده يصرح بهذا، فإننا رأينا غيره من رواد النهضـة، كالإمـام محمد عبده الذي يقول "**ارتفع صوتي بالدعوة إلـى أمـرين عظيمين، الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الـدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف...**

أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربيـة فـي التحرير، سواء كان في المخاطبات الرسمية بـين دواويـن الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة ... كانت أساليب الكتابة في مصر (وغيرها من البلدان العربية) **تنحصر في نـوعين، كلاهمـا يمجـه الـذوق فـي لغـة العرب...الأول ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وممـا يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمـات رثّ خبيث غير مفهوم، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته...والنوع الثاني ما كان يسـتعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر، وهو ما كان يراعى**

فيه السجع وإن كان باردا، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئا في الذوق لا ينطبق على اللغة العربية..."(٢٢) .

إن أي تجديد فكري لا يمكن للغة تقليدية أن تعبر عنه، لذلك وجدنا رواد النهضة روادا في اللغة العربية الجديدة التي خلعت عنها ثوب الجمود لتعبر عن توق للحياة الناهضة.

بناء على ذلك يعد الكواكبي أديبا ومفكرا أسهم في تجديد اللغة العربية عبر المقالة الصحفية إلى جانب رواد أدباء ومفكرين عاصروه أو سبقوه في هذا المجال في بلاد الشام ومصر، فمعظم الأدباء البارزين والمصلحين مع بداية النهضة كانوا صحفيين، أسسوا صحفا خاصة بهم أو أسهموا في تحريرها ("التقدم" لأديب اسحاق "الجوائب" لأحمد فارس الشدياق، "الجنة" لبطرس البستاني (أوكل رئاسة تحريرها لابنه سليم البستاني) "المنار" محمد رشيد رضا، "العروة الوثقى" جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده...) بل وجدنا بعضهم صديقا للكواكبي، ما إن تغلق السلطة العثمانية جريدته، حتى يفسح له المجال ليكتب في صحيفته متحديا

السلطة العثمانية، لذلك نجـده يراسـل ("النجـاح" "النحلـة" "الأهرام" "المصباح" "لسان العرب" "التقدم"...).

يلفت نظرنا هذا التواضع الجم الذي لحظناه لديـه، رغـم مواهبه المتعددة وإنجازاته، لذلك استطاع أن يقدم مـا ينفـع الناس ويمكث في الأرض، فمثلا يختم افتتاحية العـدد الأول من جريدة "الشهباء" بقوله "**نرجو من مطالعي صحيفتنا هـذه أن يغضوا الطرف عن ذلك القلـم الفـاتر وخلـل الخـاطر الضعيف القاصر، وينظر بعين السماحة والرضاء، فيستروا ما يبدو من أخطاء ونقصان، فإننا مشاة بين فرسـان هـذا الميدان، ومبتدئون بما لم نأتلف عليه ولا بلغ مقامنـا بعـد إليه، ولكن حكم الدهر والزمـان علـى أوطاننـا بـالخلو والحرمان سوغ لنا اقتحام هذا المضمار مـع قصـور فـي الصناعة والبضاعة والأفكار، فنرجو العذر، فإن قبوله مـن شيم الكرام"(٢٣)** .

لابد أن يتأثر المرء بهذا التواضع الجم، الذي يـوحي لنـا برؤية موضوعية للذات، وبمقدرة على النقد الذاتي قلّ أن نجدها لدى المثقف العربي! من هو الكاتب العربي اليوم الذي نجـده يصف كتاباته بمثل هذه الصفات؟ (القلم الفاتر، خلـل الخـاطر

وضعفه، أخطاء ونقصان، كاتب مبتدئ، قصور في البضـاعة والصناعة!!) .

كما نلمس لديه شعورا بالامتنان لمن سبقه مـن الكتـاب، فنجده يصفهم بالفرسان ويعد نفسه من المشـاة قياسـا لمـا أنجزوه في ميدان الصحافة!! ومثل هذا الشعور يحفز المرء على تقديم أفضل ما لديه، فلا يكتفي أن يتبع الآخـرين بـل يحاول بذل جهده كي يصل إلى سويتهم بل يتجاوزهم أيضا.

نلاحظ هنا كما لحظنا في مقالاته السـابقة كيـف طغـى إحساس المسؤولية تجاه الوطن المهان، فكان دافعا للكتابـة لديه، فقد آلمه ما يعانيه من تخاف وضعف، لذا بدا راغبا في المشاركة بالنهضة، فجنّد قلمه وسيلة تنويرية، يقاوم عبرها الاستبداد، ويسهم في نشر الوعي لدى الناس كافة.

***

الحواشي:

١. جان دايه "صحافة الكـواكبي" ج١، مؤسسـة فكـر للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص١٣.

٢. جان دايه "صحافة الكواكبي" ج٢ "جريـدة العـرب" فجر النهضة، انطلياس، ط١، ٢٠٠٠، ص٢١.

٣. علي حرب، "مجلة عالم الفكـر" الكويتيـة، ينـاير_ مارس،٢٠٠١، ع(٢٩) ص١١٨.

٤. صحافة الكواكبي ج١، ص١٣٩.

٥. صحافة الكواكبي ج٢، ص٥١.

٦. صحافة الكواكبي ج١، ص١٧٢.

٧. المصدر السابق، ص١٧٣.

٨. المصدر السابق نفسه، ١٤٩.

٩. نفسه، ص١٤٦.

١٠. ابن خلدون "مقدمة ابن خلـدون" دار القلـم، بيروت، دون تاريخ، ص١٣٤_١٣٥.

١١. صحافة الكواكبي، ج٢، ص55.

١٢. المصدر السابق، ص٦٢_٦٥، بتصرف.

١٣. المصـــدر الســـابق نفســـه، ص٥٨_٦١، بتصرف.
١٤. نفسه، ص٤٠.
١٥. صحافة الكواكبي، ج١، ص١٧٤.
١٦. المصدر السابق، ص١٦٥_١٦٦.
١٧. صحافة الكواكبي، ج٢، ص٣٧.
١٨. المصدر السابق، ص٤٣.
١٩. صحافة الكواكبي، ج١، ص١٥٨.
٢٠. المصدر السابق، ص١٦٩_١٧٠.
٢١. صحافة الكواكبي، ج٢، ص٤٦.
٢٢. طاهر الطناجي (عرض وتحقيـق وتعليـق) "مذكرات الإمام محمد عبده" سيرة ذاتية، سلسلة كتاب الهـــلال، ع ٥٠٧، رمضـــان، مـــارس، ١٩٩٣، ص٢٦_٢٧ .
٢٣. صحافة الكواكبي، ج١، ص١٤٠.

■ ■

الخاتمة:

يمثل الكواكبي ظاهرة تكاد تكون فريدة في الفكر العربـي الحديث، إنها ظاهرة انسجام قول المفكر بفعله، لذلك يعد ابنا باراً بعصره، فقد كان صوت الحق الذي يعلـو فـي وجـه السلطة الظالمة، يحمل سيف الكلمة الصـادقة مـدافعا عـن حقوق أبناء أمته، وموقظا لهم من غفوتهم.

وقد دفّعتّه سلطة الاستبداد ثمنا باهظـا لمواقفـه الثـائرة وأفكاره التنويرية التي حاول أن ينشرها، ويسـاعد عبرهـا الناس بأية طريقة (تأليف الكتب، الكتابة الصـحفية، كتابـة الشكاوي ضد المستبدين للأميين وغيرهم من المظلومين...) فعانى صنوف الآلام والاضطهاد من أجل مواقفـه الصـلبة وكتاباته التي تفضح مساوئ الاسـتبداد، وتقـرر المواجهـة الواعية عبر الدراسة والتحليل، تبرز الداء وتصف الـدواء، وهو بذلك يخاطر بحياته (حكم عليه بالإعـدام فـي حلـب، تعرض للاغتيال، ثم قتل بالسم في مصر) بل نجده من أجل نشر أفكاره وكتبه يخاطر باستقراره، ويهجر موطنه وأسرته في (حلب) .

استطاع الكواكبي بهذه الهجرة أيضا أن يقدم مـثلا حيـا لمقاومة المستبد، حتى في رفض الإقامة في أرضه، فقد لجأ إلى المقاومة بكل ما يستطيع من وسائل، وحين أحـس بأنـه يكاد يستنفد جميع هذه الوسائل، سمعناه يردد ما جاء في الأثر "**من أعان ظالما على ظلمه، سلّطه ا عليه**" لـذلك كانـت الهجرة من الوطن إحدى وسائل المقاومة، ورفض الإقامة في أرض الاستبداد! لأنها ستضطره للسكوت على الظلم وهـذا في رأيه إعانة للمستبد، الأمر الذي يعني إخلالا بتعاليم دينية آمن بها، إذ "**إن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جـائر**" ومن أجل كلمة الحق دفع الكواكبي حياته!!

ورغم مرور حوالي مئة سنة على اغتيال الكواكبي نجده معاصرا لنا، ينطق بهموم زمننا، التي هـي همـوم زمنـه، فمازالت كلمة الحق التي نطق بها، والتي خاف أن تضيع في أودية الجهل، خير معين للعرب في يقظتهم، كي يتجـاوزوا تخلفهم، ويبنوا نهضتهم على أسس قويمة، حاول أن يقـدمها لنا عبر جميع ما كتبه، فقدم، عبر الكلمة الأدبيـة الرفيعـة، منهج عمل نهضوي يشمل منـاحي الحيـاة كلهـا (الـدين والأخلاق والتربية والاقتصاد والحكم...) كما تشمل المناحي

التطبيقية للفكر والسلوك الخاطئ الذي يتبعـه المثقـف فـي حواره مع الآخرين (الإصرار على صحة آرائه، عدم سماع الرأي المخالف، ممالأة الاستبداد...) وهي أخطاء مازالـت تعشّش في أعماق مثقف اليوم كما كانت تعشّش في الأمس!!

قد تختلف مع الكواكبي في بعـض الآراء، لكنـك حـين تتأملها تحس أنها ابنة ظروف قاسية عاش وطأتها، فقد عانى هو وقومه العرب صنوف الاستبداد من السلطة العثمانية التي تحكم باسم الإسلام، لذلك رأيناه في كتابه "أم القرى" يفضـل الحاكم الأجنبي، لأن الحاكم المسلم بات مشركا ظالما، لهـذا من الأفضل شرعا وعقلا، في نظره، أن يحكمنا ملوك أجانب **لأنهم أقرب للعدل، ولإقامة المصالح العامة، وأقـدر علـى إعمار البلاد وترقية العباد!**

ولا نستطيع أن نقول إن هذا الرأي تبناه جميـع أعضـاء رابطة "أم القرى" إنما طرحه أحد أعضائها (المرشد الفاسي) وقد ورد بين جملة آراء تبحث في سبل الخلاص من الحكـم الاستبدادي.

سيكتشف الكواكبي في وقت لاحق حقيقة هـذا الأجنبـي (الاستعمار الإنكليزي) أثناء إقامته في مصر، لذلك وجـدناه

في كتابه "طبائع الاستبداد" ومقالاته الصحفية يفضح تناقض هذا الأجنبي واهتمامه بمصالحه فقط!

يدهشنا هذا الوعي المبكر لأهمية الموروث الديني في حياة الناس، فرأى ضرورة تجديده وإنقاذه من المشعوذين، ليصبح منهج حياة، يجدد على أساسه المجتمع، لذلك قدم دراسة وافية لبعض الآيات القرآنية التي شوه تفسيراتها رجال الاستبداد الذين يدعون التدين، ليجعل بذلك من النصوص الدينية الأصيلة (القرآن الكريم والحديث الشريف) بداية النهضة والقضاء على الاستبداد.

وهكذا استطاع الكواكبي أن يمتلك حيوية فكرية، لعل خير دليل على ذلك مقدرته على تطوير رؤيته الفكرية شأن كل مفكر أصيل، أي يطور، في الوقت نفسه، أسلوبه في الكتابة شأن كل أديب أصيل، فاستطاع بذلك أن يجسد لنا انسجام التطور الفكري والأسلوبي، فكانت اللغة لديه نبض الفكر وروحه، وبذلك استطاع أن يقدم لنا لغة جديدة تجسد فكرا مبدعا!

تجلت موهبة الكواكبي الأدبية في تنوع أساليبه التي هي نتيجة حيوية أفكاره، ورغبته في التواصل مع المتلقي

والتأثير فيـه، فلجـأ إلـى أسـلوب القصـة، والمنـاظرة، والمقارنة...الخ كما عمد إلى التخييل والسخرية والمبالغـة، باختصار عمد إلى كل ما من شأنه أن يزيد فكرته وضـوحا وجمالا.

صحيح أن الكواكبي لم يستطع فـي بعـض الأحيـان أن يتجاوز لغة عصره، لكنه اسـتطاع أن يطـوع هـذه اللغـة ويكسبها مرونة، فلم نجد المحسنات البديعية التي اسـتخدمها تثقل كاهل النص لديه، فقد تمكن من توظّفيهـا فـي خدمـة الفكر، واستغلّ ما تملكه من إيقاع كي يجعل الفكـرة أكثـر تأثيرا وحيوية، وقد استطاع، شأن المبدعين الكبار، أن يطور لغته مع الزمن بفضل الممارسة اليومية للكتابة في الصـحافة والتأليف من جهة وفي كتابة الشكاوي في مكتب المحاماة من جهة أخرى.

إذاً حاول أن ينهض باللغة من قوالبها الجامدة كما نهـض بالفكر، فكانت لغته صورة لفكره الذي كان يطمح إلى تجاوز المألوف، دون أن يقطع صلته بالأصول الحية التي مازالـت فاعلة في حياتنا، فأبعد الركود عن فكره، كما أبعد الجمـود عن اللغة، وذلك بفضل تحول الكتابة إلى تجسيد حي لمعاناته

اليومية، يؤرخ عبرها القهر اليومي الذي يتعرض لـه هـو وأبناء وطنه، كما تؤرخ صراعه مع الاسـتبداد، فصـارت الكلمة، على يديه، أحد الأسلحة الرئيسية التي يقـارع بهـا المستبد، لذلك ليس غريبا أن تتطور اللغة على يديـه، بـل نستطيع أن نعده أحد أبرز رواد النهضة الذين قاموا بإحيـاء اللغة العربية حين أقدموا على إحياء الفكر من أجل تجـاوز عصور الانحطاط.

لعل ميزة الكواكبي عن غيره من المصلحين أنه اسـتطاع أن يوظف مقدرته الأدبية وثقافته الدينية مـن أجـل ابتكـار خطاب يصل إلى العامة، فينهض بعقولهم وبوجدانهم معا.

وهكذا بدا لنا الكواكبي رجل القول والفعل، اجتمـع لديـه الإبداع الأدبي بالإبداع الفكري، وامتزجـت لديـه الرؤيـة النظرية بالرؤية النضالية، فقدم لنا فكرا أصيلا، مازال يصلح لعصرنا، لأنه ابن التجربة المعيشة والجهاد اليومي، إذ شهر جميع الأسلحة التي يملكها في وجه المستبد.

ومن الملاحظ أنه لم تؤرقه الأنا، فلم يكن معنيا بظهورها، كما يفعل بعض المثقفين اليوم فيضخمون ذواتهم ويـدورون حولها، بل كان حريصا على إيصال كلمته الحرة إلى جميـع

الناس، دون أن يكون معنيا بالشهرة، لذلك لم يحرص علـى اقتران اسمه بما يكتب دائما، فقد راعى ظروف الاسـتبداد، فاتخذ رموزا لاسمه، ونشر كتبه وبعض مقالاته موقّعة بهـا، دون أن يعلن اسمه صراحة، فاتخذ أسماء مستعارة (السـيد الفراتي، الرحالة ك، ع حلب، مسلم حر الأفكـار..) ولـولا صداقته لأصحاب الصحف التي كان يراسلها لما عرفنـا أن هذه المقالات للكواكبي!!

لذلك كله مازال الكواكبي معاصرا لنا، رغم مرور حوالي مئة عام على استشهاده، إنه مازال مثلا أعلى في التضـحية والإبداع لكل المثقفين الذين يعملون لتحقيـق حلـم النهضـة ومواجهة تسلط الاستبداد والغريب.

■ ■ ■

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

١. _جان دايه "صحافة الكواكبي" مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤.

٢. جان دايه "صحافة الكواكبي: جريدة العرب" ج٢، دار فجر النهضة، أنطلياس، ط١، ٢٠٠٠.

٣. عبد الرحمن الكواكبي "الأعمال الكاملـة للكـواكبي" إعداد وتحقيق محمد جمال الطحان، مركز الوحـدة العربية، بيروت، ١٩٩٥.

ثانيا: المراجع

٤. ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد "العبـر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون" دار القلم، بيروت، دون تاريخ.

٥. جان دايه "الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولـة" منشورات سوراقيا، لندن، ١٩٨٨.

٦. حسن سعيد "عبد الرحمن الكواكبي: جدلية الاستبداد والدين" سلسلة رواد النهضة (٥) قم، ط١، ٢٠٠٠.
٧. سعد زغلول الكواكبي "عبد الرحمن الكواكبي: السيرة الذاتية" دار بيسان، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
٨. طاهر الطناحي (عرض وتحقيق وتعليق) "مذكرات الإمام محمد عبده: سيرة ذاتية" سلسلة كتاب الهلال، ع٧٠٥، رمضان، مارس، ١٩٩٣.
٩. عباس محمود العقاد "عبد الرحمن الكواكبي" دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دون تاريخ .
١٠. عدنان عويد "إشكالية النهضة في الوطن العربي من التوابل إلى النفط" دار المدى، دمشق، ط١، ١٩٩٧.
١١. علي حرب "فكر النهضة بين الإحياء والتنوير" مجلة عالم الفكر الكويتية، ١_٣، ع(٢٩) يناير، مارس، ٢٠٠١.
١٢. ماجد الغرباوي "الشيخ محمد حسين النائيني" سلسلة رواد الإصلاح (٤) قم، ط١، ١٩٩٩.

١٣. محمد عمارة "الإمام محمد عبده" دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
١٤. محمد عمارة "تيـارات اليقظـة الإسـلامية الحديثة" كتاب الهلال، ع(٣٨٠) أغسطس، ١٩٨٣.
١٥. محمود أبو رية "جمال الدين الأفغاني" سلسلة نوابغ الفكر العربي (٢٩) دار المعارف بمصر، دون تاريخ .

■ ■ ■